محمد كامل الخطيب



الأشجار الصغيرة

رواية ـ ٢ ٢١

الأشجار الصغيرة

- محمد كامل الخطيب.
- الأشجار الصغيرة.
- الطبعة الأولى: دمشق ١٩٩٩
- منشورات: ٢١

التوزيع :الدار الوطنية الجديدة

دمشق هـ ٤٤١٨١٧٢

٤٤١٨٢٠٢

محمد كامل الخطيب

الأشجار الصغيرة

روايـــة

مشروع رواية

... «وهكـذا، حين اندمجنا في التاريخ، بعنف، لم يكن لنا سوى أن نصنع أدباً ذا طابع تاريخي».

جان بول سارتر

«يا شجرة الخوخ عند بابي
إذا لم أعد يوماً
فالربيع آت
أزهري أنت»

شاعر ياباني مجهول

«لابد أن تشرق طروادة أخرى
وتغرب
لابد من جيل آخر يطعم الغراب
لابد من قدوم سفينة ملونة أخرى
يشق عباب الماء إلى هدف باهر،
ولكنه سراب»

وليم بتلر ييتس

فصل

هذا الصباح سار عكس مسيره في الأيام السابقة، فكل جمعة، وما بين الثامنة والعاشرة يتجول ويشتري أغراضاً من سوق الجمعة، وبعدها ينزل إلى بوابة الصالحية، و من ثم يبدأ في البحث على الأرصفة عن كتب قديمة مبتدئاً من أول بائع، وغالباً ما يخرج بصيد ثمين، من الكتب النادرة أو قديمة الطبع، أو المجلات المفقودة، ثم يعود صاعداً طريق الصالحية عبر ساحة عرنوس فالجسر الأبيض فالعفيف، ومن هناك ينعطف إلى الشيخ محي الدين حيث يسكن، وما أن يصل البيت، حتى يبدأ في تصفح الكتب التي التقطها، ثم يقوم ويحضر غداءه من المواد التي اشتراها في الصباح، وبعدها يعود إلى كتبه يقرأ فيها طوال فترة ما بعد الظهر، أما في المساء فغالباً ما يذهب إلى السينما، أو في زيارة صديق.

صباح هذه الجمعة سار معاكساً مسيره في صباحات الجمع السابقة. فها هو ينزل من الشيخ محي الدين، لا فارغ اليدين ليملأها كتباً في طريق الصعود، بل هو ينزل حاملاً ما يستطيع من الكتب، ليعود صاعداً فارغ اليدين.

وصل إلى البسطة الأولى التي اشترى منها كتباً كثيرة خلال الأعوام السابقة، فأحس بالارتباك والخجل من أن يعرض كتبه

على بائع يعرفه منذ خمس سنوات، صحيح أنهما لا يعرفان اسمي بعضهما، وأن البائع يناديه بالأستاذ وكأن هذا هو اسمه، لكنهما يعرفان وجهي بعضهما جيداً، بل ويتبادلان التحية إذا ما تصادفا في الطريق. نظر إليه صاحب البسطة مبتسماً عندما رآه يحمل كمية كبيرة من الكتب وقال:

ـ ها.. الأستاذ وجد كتباً كثيرة هنا اليوم.. من عند عبدو.. آ...

كان عبدو بائعاً رصيفياً آخر، يتنافس مع صاحب هذه البسطة. ابتسم مدارياً ارتباكه، وتابع طريقه بعد أن صمم على الذهاب إلى بائع جديد لا يعرفه بدأ يقف منذ جمع قليلة قرب سينما الحمراء.

كان هذا البائع الجديد طويلاً، مليئاً، ذا وجه مهيب، تبدو عليه مظاهر عز وترفع، ويبدو واضحاً أكثر أنه ليس بائع كتب أصلاً، وأن أزماناً جائرة هي التي خانته وألقته على رصيف بيع الكتب هذا:

ـ مرحباً يا معلم

سلم ثم تابع:

ـ عندي ها الكتب و...

لم يكمل بل أخذ ينظر في وجه الرجل وسيمائه وكأنه أحس أنه رأى هذا الرجل، أو رأى صورته في مكان أو زمان ما، في مكتب، في مدرسة، في دكان، في سيارة.. كان وجهه يبدو أليفاً.

ـ أهلاً.. كم تريد فيها؟

أجاب صاحب البسطة وكأنه يتعجل إنهاء الأمر

ـــ هكذا .. ألا تريد أن تراها؟

قال وكأنه يتباهى بنوعية الكتب التي يحمل.

ـــ ما هي .. أرني.. آه خطط الشام لكرد علـــي... هـــذا كتاب قيم.. نهج البلاغة.. مقامات الحريري.. تاريخ خليفة بـــن خياط.. كتاب الطبقات.. موسوعة الخراج.. كتبك جيدة يــــا شاب.. جمهرة أشعار العرب.. المفضليات.... الأصمعيـــــات.. كلها تراثية.. ديوان حسان بن ثابت..

ـــ عندي كتب أخرى.. سأحضرها الأسبوع القادم.

قال وكأنه يرغب البائع

ـــ كل كتبك تراثية؟

ـــ لا.. هي الكتب التي أريد بيعها الآن

ـــ كم تريد ثمنها؟

ـــ كم تساوي؟ أعطني سعراً

ـــ لا.. قل أنت.. الكتب كتبك

ـــ قل أنت ما يناسبك.. أسعار الكتب الآن غير الأســـعار القديمة

ـــ طيب.. لنرها مرة أخرى

وعاد البائع يتصفح الكتب مرة ثانية: ثم قال:

ـــ طيب.. مائة ليرة.. يناسبك؟

ـــ كيف مائة ليرة؟.. خطط الشام وحده يساوي أكثر!..

ـــ هل تريد بيعها متفرقة أم كلها

ـ لا، كلها .. لكن قل سعراً مناسباً

ـ اسمع .. لا أريد أن أجادلك.. قل لي.. كم تريد؟

ـ وأنا لا أريد أن أجادلك.. كم تدفع؟

تدخل شاب يتصفح الكتب، ثم أشار أنه يدفع أكـــــثر، فتطلع البائع إليه وقال:

ـ عيب، هو يبيعني أنا...

ـ هل تبيع مقامات الحريري وكتاب الطبقات وحدهما؟

ـ هو لا يبيعها إلا كلها

أجاب البائع، ثم التفت إليه قائلاً:

ـ أعطيك مائتين.. لست مثل الآخرين.. لا أحب المجادلة.. ليست شغلتي...

وتذكر أنه لم ير هذا البائع على الرصيف إلا منذ جمع قليلة.

ـ لم أرك إلا منذ مدة قصيرة هنا.. أين كنت تبسط سابقاً؟

ـ أل راغباً في معرفة أيما شيء عن هذا البائع

ـ لم أكن أبسط.. هذه ليست شغلتي.. لكــــن الأيـــام.. بسيطة.. هل يوافقك مائتان؟..

بان الأسى على وجه البائع، وبان أكثر أنه يريد الانتهاء من هذا الموضوع، وأنه يريد أن يبيع ويشتري بأسرع ما يمكن، وربما دون أن يراه أحد، فازدادت رغبته في الحديث معه.

ـ ماذا كنت تشتغل قبل الكتب.. هل...؟

ـ هل تريد أن تبيعني كتبك أم تريد التحقيق معي؟

فجأة انتفض البائع، فبوغت وارتبك، لكنه تماسك بعد أن أيقن أن ثمة أمراً ما يخفيه هذا الرجل:

ــ عفواً.. مجرد سؤال.. لا أعني شيئاً.. أعذرني.. مجرد سؤال.. وأنا كذلك ليست شغلتي بيع الكتب.. كنت أجمع الكتب.. لكن الكتب عندي صارت كثيرة.. ما عندي مكان..

ــ إذن.. هل يناسبك المبلغ أم لا...؟

تدخل شاب آخر، وبدأ حواراً مع البائع، بينما وقف هو ينتظر ويحاول تذكر أين رأى هذا البائع. لاحظ أن البائع غضب من الشاري؛ فتقين تماماً أن هذا البائع جديد على هذه الصنعة قال:

ــ لماذا تغضب يا معلم؟.. الناس أذواق.. كل يقول السعر الذي يوافقه.. هدئ أعصابك..

ــ آه يا عمي.. هذه ليست شغلتي.. معك حق.. هل وافقت أنت ...؟

أحس بتعاطف مع البائع، وأحس برغبة في معاودة سؤاله بعد أن أحس أن البائع هدأ واطمأن لتدخله الهادئ في الحديث مع الشاري الآخر. قال:

ــ لكنك لم تقل لي ماذا كان عملك قبل بيع الكتب؟

ــ ضابط يا سيدي.. كنت ضابطاً.. أنا ضابط مسرح.. لا ترني أبيع الكتب هكذا.. ليست شغلتي..

هكذا أنفجر البائع فجأة وكأنه يبحث عن رجل ما يستمع إليه، رجل يفهمه حقيقة نفسه وأنه ليس بائع كتب، كأنه كان يريد شخصاً يشكو إليه الزمان الذي ألقاه على هذا الرصيف.

كان الشاري الشاب قد ذهب وبقي هو والبائع وحدهما، فتابع البائع حديثه:

ـ كنت نقيباً.. نقيباً في الشرطة العسكرية أيام الشيشكلي.. اتهموه بالديكتاتورية، الله يرحمه، أتى من هو ألعن منه.. وحدنا.. أنا والنقيب عبد الله النعساني بقينا معه حتى آخر لحظة.. كان باستطاعته أن يقاوم.. كان معه مدرعات ومدفعية قطنا والقابون وكانت الشرطة العسكرية معه. كان باستطاعة الشيشكلي أن يقاومهم بل وأن يهزمهم، لكنه كان وطنياً حقاً ففضل أن يبتعد على أن تقع حرب أهلية بين الجيش حتى ولو كان هو المنتصر...

تذكر عبد الله النعساني، لكنه فضل متابعة قصة هذا البائع:

ـ وأنت ماذا حصل لك بعد هروب الشيشكلي...

ـ أرسلونا.. النقيب عبد الله وأنا ملحقين عسكريين.. أنا إلى روما.. وعبد الله إلى باريس.. أنا تعاونت مع الشيشكلي فيما بعد عام ١٩٥٦، فسرحت من الجيش.. أما النقيب عبد الله فقد عاد وتعاون مع السراج، ثم مع عبد الناصر وبعده النحلاوي.. ثم مع زياد الحريري وها هو الآن وزير، وزير التموين، هذه...

قاطعه ممازحاً ومحرجاً: ثم أضاف آ... هو وزيرنا

ـ تتكلم في السياسة يا عم .. وعلى رصيف الشارع؟ ما لنا علاقة...

كانت حماسة البائع قد ازدادت فأجاب بصوت عال بعض الشيء:

ـ على ماذا أخاف؟ هل خرب البلد غير الخوف من الكلام، سجنوني خمس سنوات، وغداً يسجنونك أنت.. ولكنك تقول.. ما لنا علاقة.. لكنا.. و...

كان البائع قد نسي دوره الذي يؤديه هذه الأيام، وربما دفعه بؤسه الراهن إلى أن يتذكر دوره الذي لعبه فيما مضى، يوم كان النقيب عثمان نجاتي قائد الشرطة العسكرية في موقع دمشق. يومها كان ساعد العقيد الشيشكلي اليمين في العاصمة، وقد بقي وفياً للشيشكلي، وحتى بعد أن هرب العقيد إلى بيروت، قام النقيب عثمان بالتعاون مع النقيب عبد الله النعساني، من اللواء المدرع المرابط في القابون باحتلال الإذاعة.

استطرف حديث البائع، فباعه كتبه ووعده بكتب أخرى، قرر أن يتخلص منها بعد أن صمم على ألا يقتني إلا القليل الذي يحتاجه من الكتب، وعاد صاعداً في طريق الصالحية، فارغ اليدين غير قادر على تحديد المشاعر التي تعتريه. لقد اختلطت مشاعره مع ذكريات النقيب، فأحس بالاضطراب؛ اضطراب تغيير العادة، اضطراب التخلي عن شيء عزيز على النفس. فها هو للمرة الأولى منذ عشرين عاماً كان يشتري خلالها الكتب، ها هو للمرة الأولى يبيع الكتب، ولمن؟ لمخفق آخر، وئدت أحلامه منذ زمن،

لرجل خائب كان مشروع حاكم، مشروع ديكتاتور، أو وزير.. لكن المغامرة وئدت في بدايتها، وألقي صاحبها على الرصيف منذ عام ١٩٥٦

صورة

كان النهار صحواً: نظر الناس إلى السماء فرأوا دبابات وعساكر وبوارج ومدافع.

كانت الحقول جميلة فرأى فيها الناس عساكر ومدافع وبنادق.

كان الناس نياماً فرأوا دبابات وطائرات وعساكر. كانت الجبال جميلة، وفيها رأى الناس صواريخ وبنادق وبوارج. كان البحر ساجياً وفوقه رأى الناس دبابات وعساكر وصواريخ وطائرات.

في البيوت، في الحقائب، في المعلبات، في النوم، في اليقظة، في الجبال، في البحر: في السهوب، ليس هناك إلا العساكر والدبابات والبنادق، وكلها بيد رجل واحد يشهرها في وجه الناس، فأين يذهب الناس يا ترى؟!

لا مكان، لازمان، لنذهب إليه، فالطائرات والدبابات والصواريخ والرشاشات تطأ الناس و تحصدهم مثل حصادة قمح،

بينما في الجو تحلق هائمة روح العقيد الشيشكلي ، وكأنها تســـخر من الذين انقلبوا عليه.

فصل

ـــ سيدي.. سيدي.. اسمع الراديو.. إذاعة حلب...

كان هذا صوت قدري قلعجي صباحاً على الهاتف. أدار الشيشكلي مفتاح الراديو فسمع صوتاً أحس أنه يعرفه:

«.. ليس هذا ببلاغ ولكنه اعتراف وعهد ونداء، أنه اعتراف بحالة أوصلت الجيش والشعب إليها حفنة من الرجال الأشرار.. وهو عهد بمحو الخزي والعار اللذين لحقا الجيش واستعادة طهارته ونبله لكي يعود إلى ثكناته بنظام.. وهو أخيراً نداء لحمل السلاح، ونداء للشرف.. ».

بطريقة آلية، تحركت يد الشيشكلي وطلبت نزيه الحكيم مدير الدعاية والأنباء، ثم أحمد عسه مدير الإذاعة لتسألهما عما يذاع في الراديو، ثم طلب الرئيس الزعيم شوكت شقير رئيس الأركان العامة، وعبد الحق شحادة القائد العام للشرطة العسكرية، ثم طلب مزيداً من الإجراءات الأمنية والدوريات في الشوارع، وبعدها اتصل بقيادة المدرعات في القابون، ثم دعا مستشاريه العسكريين والمدنيين إلى اجتماع عام للتداول فيما يجري.

كان أول المتكلمين هو النقيب عبد الحق شحادة القائد العام للشرطة العسكرية، فقال أن المتكلم في الإذاعة هو زميله في الكلية

العسكرية النقيب مصطفى حمدون. حاول الشيشكلي تذكر هذا النقيب، وبعض الأحاديث العابرة في اجتماعات الضباط، ثم تذكر نفسه عندما قام هو بانقلابه الأول على الزعيم الحناوي وأذاع البيان الأول، وعندها بدأ شريط حياته يتراقص أمام عينيه، وبين حين وآخر تدخل سمعه كلمات متفرقة من مستشاريه.

كان يحدق في وجوههم وكأنه يستمع باهتمام إلى كل كلمة تصدر عن كل واحد منهم، لكنه كان في عالم آخر، كانوا يتكلمون في كيفية مقاومة الانقلاب والأغراض والدوافع والمحركين، وكان يتذكر حياته السابقة، ويفكر بأن مصطفى حمدون يلعب الآن لعبته نفسها يوم قام هو بانقلابه الأول. عاد وجه مصطفى حمدون يلح على مخيلته، ثم تذكر وجه أكرم الحوراني «لا ريب أن أكرم هو المحرك الأول أعرف ألاعيبه» تذكر طفولته المشتركة مع أكرم الحوراني، ثم تذكر دخوله المدرسة الزراعية، وانتسابه إلى القوات الخاصة، هربه ومشاركته في ثورة حماه على الفرنسيين مع الحوراني. انتسابه مع الحوراني إلى الحزب القومي السوري. اشتراكه في حرب ١٩٤٨، صفد، حماه، دمشق. ليالي العسكر مع الضباط الشباب في نادي الضباط. أكرم الحوراني. الانقلاب الثاني. اعتقال الحكومة اعتقال ناظم القدسي «هؤلاء السياسيون المدنيون الذين يركضون وراء مصالحهم الخاصة» تذكر أحلامه بدولة قوية، العلاقات مع السعودية وفرنسا. حركة التحرير العربي. مؤتمر الفلاحين في حلب، الكفاح مع الحوراني ضد الإقطاع. حسني البرازي، آل البرازي. حماه.

طفولته على شاطئ العاصي. باب النهر. الكيلانية. خروج الأتراك من حماه. دخول الفرنسيين. انتسابه إلى المدرسة الزراعية. أخاه صلاح. افتتاح فروع حركة التحرير في دمشق: افتتاح فروع الحركة في حلب. خطاباته. خطابه في دمشق «حركة التحرير العربي ليست حزباً جديداً يضاف إلى قائمة الأحزاب القديمة ليشوش الأمة ويجزأ قواها. إنه محاولة صادقة لدمج العناصر الطيبة من جميع الأحزاب والطبقات لصبهم في قالب واحد قوي، قادر كلياً على استعادة ثقة الأمة وإعطاء البلد صوتاً يصغي إليه ويحترم».

افتتاح فرع حركة التحرير في حلب وألف سيارة تدخل المدينة، مؤتمر الفلاحين في حلب. آل البرازي. أكرم الحوراني. حماه. دمشق. صفد. حلب. خطاباته في حلب»

إن بلدنا هو موطن الفكرة العربية.. إنني أدعوكم لان تلتحقوا بحركة التحرير العربي التقدمية والتي أقدر لها أن تنمو حتى تضم الوطن العربي كله.. فحركتنا هي تعبير عن ثورة الضمير العربي في سورية وشعلة هذه الثورة تنتشر إلى كل الأقطار العربية لتطيح بالقادة الجبناء الذين اقترفوا بضعفهم في حق عرب فلسطين جريمة كبرى "حرب فلسطين. أكرم الحوراني. حماه. دمشق. انتخابات رئاسة الجمهورية" ها هم الضباط الشباب يلعبون معي اللعبة نفسها يحاربونني بالكلمات التي حاربت السياسيين بها لعبت لعبتي وغيري سيلعب لعبته هكذا الأيام ولا مجال للمقاومة أعدائي صاروا كثيرين في السويداء وحمص وحلب الضباط الشباب

أعدائي والسياسيون المدنيون الحوراني العظم بكـداش العسلي الأتاسي كيف أجتمع كل هؤلاء المتناقضون ضـدي العراقيون والإنكليز ضدي هل انتهت دورتي أم أنني سأستطيع الاستمرار في حكم هذا البلد العجيب هذا الـ...

ـ ماذا يأمر سيدي الرئيس؟

نبه صوت عبد الحق شحادة الشيشكلي من تيار ذكرياته، فاستعاد الرئيس نفسه إلى وسط المجتمعين، وأعطـى توجيهاته وأوامره باتخاذ مراكز دفاعية في القطعات المؤيدة، وعدم التحـرك للهجوم إلا إذا تدخلت قوات إسـرائيلية أو عربيـة، ثم طلـب الاتصال بحاميات حوران وحمص وحلب واللاذقية وحماه لمعرفـة مواقفها.

في المساء كان الموقف قد أتضح: غالبية الحاميـات تؤيـد المنقلبين، والضباط الصغار اعتقلوا قيادة الحاميـات في حلـب وغيرها، وفي الليل عقد الشيشكلي اجتماعاً لمؤيديه، ولم يفـاجئ كثيراً عندما رأى أن كثيراً من متحمسي اجتماع الصباح خففـوا حماستهم ونصحوه بالاستقالة تجنباً لسفك الدماء. أدرك العقيد أن دوره انتهى، أو أن عليه أن يلعب لعبة الانسحاب المؤقت. تركهم يتكلمون، وبدأ يكتب على ورقة بيضاء على طاولة الاجتماع:

«رغبة مني في تجنب سفك دماء الشعب الـذي أحـب، والجيش الذي ضحيت بكل غال من أجله، والأمة العربية الـتي حاولت خدمتها بإخلاص صادق، أتقدم إلى الشعب باستقالتي من رئاسة الجمهورية إلى الشعب السوري المحبوب الـذي انتخبـني

والذي أولاني ثقته آملاً أن تخدم مبادرتي هذه قضية وطني، وابتهل إلى الله أن يحفظه من كل سوء، وأن يوحده ويزيده منعـــة، وأن يسير به إلى قمة المجد، والآن أودعكم، لكني أعدكم أن روحـــي ستبقى حاضرة بينكم، هائمة في سماء بلادي».

وقع الشيشكلي كتاب استقالته وهو يتذكر أحداث النـــهار وأحداث حياته الماضية. تذكر وجوه أصدقائه وخصومه وكـــان يفكر بينه وبين نفسه:

«ما تزال لدي فرص كثيرة ما زال لدي أصدقاء ما زلـت في الخامسة والأربعين علي أن أحني رأسي مؤقتاً للعاصفة سأعود متى تتغير الظروف الجيش من لحمي ودمي ولا يجوز أن أدعه يقتتـــل أعرفهم هؤلاء الضباط الشباب حمدون المالكي السراج قنـــوت النفوري أحمد عبد الكريم أعرف السياسيين المدنيـــين وكيـــف يتلاعبون لا ريب أنهم خدعوا هؤلاء الضباط الصغار الحـــوراني عفلق الأتاسي العظم بكداش أعرف ما بينهم هؤلاء السياســـيون مختلفون على كل شيء ليسوا متفقين إلا ضدي الآن ســـأحاربهم بسلاحهم المهم أن يبقى الجيش موحداً حتى ولو كان ضدي يجب ألا يحدث قتال وتتدخل قوات عراقية يجب ألا....

....

ودع الشيشكلي مساعديه وغادر إلى بيروت، فبقيت دمشق دون رئيس، والقوات الثائرة ما تزال في حلب وباقي المحافظـــات. كانت الكرسي الفارغة في دمشق تغري بالقفز لاعتلائها, أليـــس الشيشكلي ضابطاً؟ أليس هؤلاء المتمردون عليه ضباطاً،؟ فلمـــاذا

لا نتقدم بدلاً عن الضباط الآخرين؟ لماذا لا أتقدم أنـا؟ ألست ضابطاً؟ هكذا فكر كثير من الضباط ليلتها، لكن الجرأة والمبادرة كانت لاثنين من الضباط هما: النقيب عبد الله النعساني والنقيب عثمان نجاتي. كان الأول آمر كتيبة مدرعة ترابط في القابون، وكان الثاني آمر الشرطة العسكرية في حامية دمشق. لقد عارضا في اجتماع الشيشكلي الأخير فكرة استقالته، وها هو رئيس مجلس النواب، الدكتور مأمون الكزبري يخالفهما، إذن ثمة غطاء سياسي مدني، فلم لا يقفزان إلى الإذاعة ويذيعان بيانهما ويستوليان على السلطة؟ وأذاع النقيبان عبد الله النعساني وعثمان نجاتي بياناً يحمل توقيع رئيس الأركان العامة الزعيم شوكت شقير الذي كان معتقلاً لديهما، وقد طالبا في بيانهما الشعب بالهدوء وتعهدا بالوقوف في وجه أي تغيير أو انقلاب على النظام لا يأتي عن طريق قانوني. كانا يلعبان لعبة الشرعية، لكن المتمردين كانوا أقوى، وخصوصاً بعد أن غادر الشيشكلي إلى المنفى، وقادة الأحزاب المعتقلون كان قد أطلق سراحهم، فنزلت مظاهرات الأحزاب المعارضة إلى الشارع، ثم اقتحمت جموع المتظاهرين مبنى مجلس النواب مؤيدة للثائرين، وبعدها اجتمع قادة المناطق الثائرة في حمص وطالبوا باستقالة الكزبري رئيس مجلس النواب الذي تسلم دستورياً وبدعم من النعساني ونجاتي، مهمات رئيس الجمهورية، ودعموا مطالبهم بتوجيه قواهم نحو دمشق، بينما هاجمت مجموعات أخرى من المتظاهرين مبنى الإذاعة حيث يعتصم النقيبان نعساني ونجاتي مع مدير الإذاعة المؤيد لهما أحمد

عسه، في البداية أطلق حماة الإذاعة النار على المتظاهرين، لكـــــن فيما بعد هرب مدير الإذاعة، واستسلم النقيبان نعساني ونجاتي، ثم حفظت كرامتهما كضابطين بإرسالهما ملحقين عســــكريين إلى روما وباريس.

فصل

... كنت في السادسة إذن عندما كان النقيب عثمان نجـاتي رجلاً مهماً ضابطاً طامحاً عام ١٩٥٤ أتذكر الآن عندما قالوا بأن رئيس الجمهورية سيزور طرطوس وأرسلوا سـيارات شـاحنة وسيارات شرطة عسكرية حملت الفلاحين إلى المدينة فنـزلنا مـن الضيعة وكنت مع أبي لا أعرف لماذا حملـني أبي علـى كتفيـه وأخذني معه كان هناك حشود كثيرة وقفنا من الصبـاح حـتى الظهيرة مقابل السراي أمام بنك سوريا ولبنان كانت تقف قـرب أبي جارتنا جميلة وابنتها مريم وأخي كمال كان يكبرني بعـامين فاستطاع أن يقف بين الجموع وأنا بقيت على كتفي أبي أكـثر الوقت كان هناك أقواس نصر وزينات مـن أغصـان الريحـان والدفلى كأني أراها الآن وأرى فلاحي القرى المحيطـة وتلاميـذ المدارس والدرك والشرطة العسكرية بقبعاتهم الحمراء وصياحـهم ابتعدوا اصطفوا وصل الرئيس بقينا ننتظر من الصباح حتى الظهيرة لكن الشيشكلي لم يأت وأشترى لي أبي كعكة وسندويشة فلافـل ونحن ننتظر الشيشكلي مثلما انتظرنا عبد الناصر نهاراً كـاملاً في المكان نفسه الذي انتظرنا فيه الشيشكلي عـام ١٩٥٨ أرسـلوا شاحنات إلى القرية فنـزلنا فيها وكنت قد أصبحـت تلميـذ مدرسة في الصف الثالث لم يأت عبد النـاصر مثلمـا لم يـأت

الشيشكلي إلى طرطوس على الرغم من أن الناس انتظروه من الصباح إلى المساء بحشود كبيرة أكثر من يوم الشيشكلي وكنت مع تلاميذ مدرستي نلبس ألبسة رياضية متنا من البرد في آذار لكننا بقينا ننتظر عبد الناصر مثلما انتظرنا الشيشكلي يوم الشيشكلي كان أبي يحملني على كتفيه ويوم عبد الناصر كنت أنتظر وأنا ألبس بدلة رياضية وأمسكت بيد عصام وابنة عمي ليلى لكن عبد الناصر لم يأت ثم انتظرناه في العام التالي وكنت قد أصبحت في الصف الرابع لكن عبد الناصر لم يأت أذكر اسم عبد الناصر منذ أيام العدوان الثلاثي على مصر حرب السويس كنت في الصف الأول وكان أهل القرية يجتمعون في بيتنا للاستماع إلى الراديو البطارية الذي أحضره أبي من البرازيل عندما رجع عام ١٩٤٦ وكان أول راديو يراه ويسمعه أهل القرية ولم يكن أبي يسمح لأحد بلمسه وحتى ولو كان عمي محسن الذي كان يحب سماع نشرات الأخبار فكان أبي يضع الراديو في الصندوق عندما يسافر خارج القرية حتى لا يلعب به عمي محسن ويفتحه على نشرات الأخبار مرة كان أهل الضيعة يستمعون إلى الراديو أدار أبي مفتاح الإذاعات سمعنا صوت أغنية فانتهر عمي محسن الراديو أخرس لا نريد أغنيات نريد بلاغات... سمعت عمي محسن يقول أن بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ضد العرب وضد عبد الناصر لأنه يريد أن يعيد قناة السويس للعرب سمعت عمي محسن يحكي مع أبي ويعلق على كل خبر وبلاغ وتطوع في المقاومة الشعبية ثم سمعت أن عمي محسن مسجون بعد أن جاء عبد الناصر إلى

سوريا سمعتهم يقولون أن عمي محسن شيوعي وكانت هذه أول مرة أسمع فيها كلمة شيوعي رأيت الدرك أكثر من مرة يفتشون الضيعة وبيتنا و لم أكن أعرف لماذا أتذكر جدتي وهي تخفي في مكلس الحطب أغراض عمي محسن صحف مجلات كتب رأيتها ذات مرة تبكي فعرفت أن الدرك اعتقلوا عمي محسن أتذكر خروج عمي محسن من السجن دخوله البيت باسماً وهو يحمل حقيبة تنكية فيها ملابس وأغراض وصحون وملعقة وكيف قبلني عندما دخل وسألني في أي صف صرت ووعدني بأنه سيأخذني إلى طرطوس وإلى أرواد وأخذني لكنه مرض ومات عام ١٩٦٥ لم يخف المرض ظل يصغر ويصغر حتى صار مجرد عظم ملسوم وفارق الحياة و لم أره مرة يبكي أو يئن كان يصبر على الآلام كان عمري سبعة عشر عاماً عندما توفي أذكره جيداً أعطاني كل كتبه ومجلاته قبل موته لم يتزوج و لم ينجب فاعتبرني وريثه الوحيد وكانت ثروته كتباً قليلة أتذكرها الآن جيداً وهذه من الكتب التي لن أبيعها أسس اللينينية لستالين البيان الشيوعي ترجمة خالد بكداش كانت هذه أول مرة أقرأ فيها اسم بكداش مسرحية محمد لتوفيق الحكيم مجموعات من بيانات الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزي مجموعة إعداد من مجلة الثقافة الوطنية هذا ما كان يشكل كل ثقافة عمي محسن وكان أفضل مثقف في المنطقة حدثني مرة عن رئيف خوري وإنه قابله مرة في طرطوس كان رئيف خوري يعلم في اللاييك نسوه الآن لأنه مثقف حر الضمير لا يريدون إلا المثقف الذي يستخدمونه

المثقف الذي يأتمر بأوامرهم ويطبل لقادتهم مثل غيرهم السياسيون سواء كلهم يريدون السيطرة وينظرون إلى النـــاس كاتبـــاع لا كعقول حرة مستقلة ما يقوله الأمين العام هو كلام منـــزل كمـا يقول سعد ولماذا هو كلام منـــزل مقدس يا سعد والأمين العـــام هو البوصلة بوصلتي الوحيدة هي عقلي لا أمام سوى العقل كمـا يقول المعري الوحيد العقلاني في تراثنا المليء بالثرثرات والتـــهريج والظلامية كلهم الآن يريدون العودة إلى التراث يريدون العـــودة إلى الماضي والتقدميون يبحثون عن أسس تقدميتهم في المـــاضي وليس في حاجات الحاضر والمستقبل سئمت هذا التراث سـئمت لغته وكتبه سأبيع كل ما بقي عندي من هذه الكتـــب الصفـــراء إحياء علوم الدين الحماسة الشجرية طبقات ابن سعد صحيـــح البخاري... المصطفى من أحاديث المصطفى .. رياض الصـــالحين سأبيعها .... النقيب عثمان نجاتي قصة عجيبة سأحاول أن أتحدث وإياه أكثر سآخذ له الجمعة القادمة مجموعة أخرى من الكتـــب القديمة سمط اللالىء معاني الشـــعر المحيـــط في اللغـــة نفـــائس المخطوطات البليغة في اللغة ال.. الـــ.. الـــ...

وأستمر يتذكر أسماء الكتب التي سيأخذها الجمعة المقبلة إلى النقيب عثمان نجاتي إلى أن أغفى..

صورة

كان النهار صحواً، نظر الناس إلى السماء فـــرأوا دبابـــات وعساكر وبوارج ومدافع.

كانت الحقول جميلة فرأى فيها الناس دبابـــات وعســاكر وصواريخ وطائرات.

في البيوت، في الحقائب، في المعلبات، في النوم، في اليقظـــة، في الجبال، في البحر، في السهوب، ليـــس هنـــاك إلا العســاكر والدبابات والبنادق، وكلها بيد رجل واحد يشـــهرها في وجـــه الناس، فأين يذهب الناس يا ترى؟!

لا مكان، لازمان، لنذهب إليه، فالطـــائرات والدبابـــات والصواريخ والرشاشات تطأ الناس وتحصدهم، ثم مثل حصـــادة قمح، بينما في الجو تحلق هائمة روح العقيد الشيشكلي، وكأنهـــا تسخر من الذين انقلبوا عليه.

فصل

قيل أن صبري بك أوصى للبلدية بالقصر، وقيل أن الدولة هي التي استولت عليه. قيل أن أقرباء صبري بك اعتبروه حصة الدولة من الميراث، إذ لم يكن لصبري بك ورثة مباشرون، وقيل أن القصر غير مسجل ضمن أملاك صبري بك وأنه مبني على أرض هي من أملاك الدولة أساساً، قيلت أقوال كثيرة حول القصر وكأن الجميع يريدون إخفاء الحقيقة عامدين، فينثرون أقوالاً مختلفة لإخفائها، لكن القصر بقي مهجوراً أكثر من سنوات عشر حتى صارت نباتات الحديقة الكبيرة المحيطة به دغلة يخاف دخولها حتى أشقياء البلدة، و لم يبق سالكاً في هذه الغابة الصغيرة إلا ممر ضيق يوصل إلى قبر المرحوم صبري بك، ممر لم يكن يسلكه إلا امرأة محجبة غريبة لا أحد يعرف أين تسكن، لكنها تأتي صباح كل جمعة وتضع ورودا؛ وفي الأعياد رياحين على ضريح المرحوم، فهل هي عشيقة لصبري بك، أم أنها مجرد إمرأة محسنة، لا أحد يعرف، لكنها شوهدت مرات وهي تبكي قرب الضريح.

يقع القصر فوق هضبة كبيرة تحيط به غابة كبيرة من أشجار التين البنغالي الذي جلبه الفرنسيون من الهند الصينية وزرعوه في الساحل من بيروت إلى اللاذقية، وثمة أشجار صنوبر وكينا، إلى

جانب القسم الشرقي المزروع بأشجار الليمون، إلا أن الليمون تحول إلى شجر بري مع تحول الحديقة إلى غابة متشابكة، شاهد الطلاب تشذيبها ذات صباح في ربيع ١٩٦٢، ففي هذا الصباح رأى هو وأخوه كمال وابن عمهما عزيز بينما كانوا ذاهبين إلى المدرسة صباحاً عمالاً يقلمون الأشجار ويعزقون الأرض وينظفونها ثم يهذبون الحديقة ويطلون الجدران ويجددون النوافذ والأبواب والزجاج، ثم وبعد حوالي شهر وضعت لافتة على باب القصر مكتوب عليها: «البنك العربي» وهكذا صار الناس يدخلون إلى القصر الذي يقول بعضهم أن المستشار الفرنسي سكنه في أواخر أيامه، أو أنه جعله بيتاً سرياً، ويتفرجون على تصميمه الداخلي وزخارفه البديعة.

كان القصر يتألف من قاعة أرضية كبيرة صارت بعد أن تحول إلى بنك تضم مكاتب الموظفين الذين يتعامل معهم المراجعون، وربما كانت في الأصل هي القاعة التي يستقبل فيها البيك مؤيديه، ثم وفي الطرف الأيمن ثمة سلم رخامي عريض يوصل إلى صف من الغرف تطل على القاعة الأرضية الواسعة من خلال شرفة تمتد على طول صف الغرف، وأخيراً هناك طابق ثان يصعد عليه من سلم خارجي، ومن الحديقة مباشرة، دون الدخول من الباب الكبير إلى القاعة الأرضية، وفي هذا الطابق سكن مدير البنك العربي.

كان مدير البنك رجلاً قصير القامة، وسيم الملامح، أشيب الشعر، يضع نظارات طبية على عينيه، مهندم اللباس، في

الأربعينات من عمره، وكان له ثلاثة أولاد، صبيان في الصف العاشر والتاسع وصبية في الصف الثامن هي ماري، ماري التي بدأت نظراته ترنو إليها كل صباح، وكل ظهيرة، عندما يذهب ويعود من المدرسة إلى أن تجرأ وتكلم معها ذات يوم، وصار يقابلها سراً قرب «اللاييك» ما بعد الظهر، أما كمال وعزيز، ثم أصدقاؤه الذين لاحظوا إعجابه بماري فقد كانوا يسخرون منه قائلين: البنت جميلة.. لكن البيت أجمل.. أو: أين ستسكن معك في غرفتك الحقيرة في الرمل أم في الضيعة . أو: أنت تكتب القصص.. البنات يفضلن الشعر.. أكتب لها الشعر أفضل؟ لكن ماري لم تبق في طرطوس، فقد انتقل أبوها إلى دمشق ومعه ذهبت ماري.

وبعدها حدثت أحداث ١٩٦٣ ثم أممت البنوك، وقرأ الناس لافتة جديدة في عام ١٩٦٥ على قصر بك، أو بيت ماري مكتوب عليها «بلدية طرطوس» مكان لافتة «البنك العربي».

شغلت البلدية الطابق الأرضي والغرف التي تطل على القاعة الواسعة، وبقي الطابق السكني مغلقاً حتى عام ١٩٦٦ وصار قضاء طرطوس التابع لمحافظة اللاذقية محافظة مستقلة. وعينوا محافظاً جديداً بحثوا له عبثاً في المدينة الصغيرة عن مسكن يليق، فلم يجدوا أفضل من قصر صبري بك، إذ بقي الناس مصرين على تسميته بقصر صبري بك على الرغم من أن البنك العربي، ثم البلدية شغلاه فترات مختلفة، وهكذا شاهد الناس ذات صباح عمالاً ينزعون اللافتة، ويجرون بعض الإصلاحات، ثم يسورون

ضريح صبري بك بعد أن فتحوا له باباً مباشراً عبر سور الحديقة إلى الشارع العام، ثم مهدوا ملعب تنس وبنوا كراجاً صغيراً يتسع لسيارتين في الطرف الشمالي من الحديقة، وغرفة خشبية للحرس على باب القصر، ثم جاء المحافظ الجديد وسكن القصر. كان اسم المحافظ الجديد هو العقيد عبد الله النعساني.

صورة

كان النهار صحواً، نظر الناس إلى السماء فرأوا دبابات وعساكر وبوارج ومدافع.

كانت الحقول جميلة فرأى فيها الناس دبابات وعساكر وصواريخ وطائرات.

في البيوت، في الحقائب، في المعلبات، في النوم، في اليقظة، في الجبال، في البحر، في السهوب، ليس هناك إلا العساكر والدبابات والبنادق، وكلها بيد رجل واحد يشهرها في وجه الناس، فأين يذهب الناس يا ترى؟!

لا مكان، لا زمان، لنذهب إليه، فالطائرات والدبابات والصواريخ والرشاشات تطأ الناس وتحصدهم، مثل حصادة قمح، بينما في الجو تحلق هائمة روح العقيد الشيشكلي وكأنها تسخر من الذين انقلبوا عليه.

فصل

أعلنت نتائج الصف السادس، ونجح، لكنه لم يكن متفوقاً كما كان والده يطمح، فلابد إذن من ترك القرية والنزول إلى طرطوس لمتابعة الدراسة الإعدادية. كان كمال أخوه قد سبقه بعامين في النزول إلى المدينة، واستأجر غرفة في حي الرمل خلف الثكنة العسكرية سكنها مع ابن عمه عزيز، وعندما أتى إلى المدينة سكن مع أخيه وابن عمه في الغرفة.

ابتهج بترك القرية والنزول إلى طرطوس للدراسة، فها هو يترك الضيعة إلى المدينة، وها هو يتعلم ركوب الدراجة منذ الأسبوع الأول، ويتفرج على السينما للمرة الأولى في حياته، ثم تعلم المشاوير المسائية على البحر، ورأى بعد أسبوعين من وصوله إلى طرطوس أول مظاهرة سياسية بعد حشود الترحيب بالشيشكلي وعبد الناصر.

حوالي الساعة العاشرة من ٢٨ أيلول ١٩٦١، وكان هو الأسبوع الثالث لوجوده في طرطوس، لاحظ أثناء استراحة الدرس الثاني طلاب الصفوف الثانوية منشغلين ويتحلقون مع بعضهم جماعات ومجموعات، ثم سمع لغطا وكلمات متفرقة عن انقلاب عسكري، وكانت أول مرة يستطيع فيها فهم معنى هذه الكلمة، ثم سمع عن بلاغات ليست كالبلاغات التي كان عمه محسن يطالب بها عام ١٩٥٦، فهذه المرة كان هناك بلاغ أثار

لغطاً كبيراً سموه البلاغ التاسع، الذي أذيع ظهراً، وبعد الظهر سارت مظاهرة كبيرة تحمل صورة الرئيس جمال عبد الناصر وعلى ظهور الرجال كان المفتي الشيخ عبد الله محمولاً.

سارت المظاهرة باتجاه الثكنة العسكرية، وقربها يسكن مع أخيه وابن عمهما فكانت أول مرة يسمع فيها الشيخ عبد الله السيد يلقي خطاباً. فيما بعد سيسمع الشيخ عبد الله السيد يخطب في أعوام ١٩٦٥ و١٩٧١ و١٩٧٥ مؤيداً للحكومة دائماً، لكن صورة الشيخ عبد الله ستبقى في ذهنه كما رآها للمرة الأولى في ٢٨ أيلول ١٩٦١.

في المساء سمع عن بلاغ أذاعوه وكان رقمه العاشر، وفي الليل سمع أصوات طائرات حربية تعبر سماء المدينة، وفي الصباح سمع أن المظليين المصريين نزلوا في مطار حميم قرب اللاذقية، لكنهم أسروا، وبعد أيام عادت الدراسة عادية، وعاد يتعرف إلى الحياة الجديدة في المدينة، يتعرف إلى طلاب من قرى أخرى نزلوا مثله إلى المدينة، يتعرف إلى مكتبة السوريتي حيث اشترى أول مجلة ثم أول كتاب، وفي هذا العام يحاول كتابة أول قصة ويتعرف على البحر، يستأجر الدراجات، يتعرف على السينما، على الفتيات، يتعرف على ماري في العام التالي.

كان كمال، أخوه مشغولاً مع عزيز بالسياسة، وكان يلاحظ طلاباً وطالبات بل ورجالاً كباراً يدخلون ويخرجون إلى غرفتهم، وأكثر من مرة لاحظ أن أخاه وابن عمه عزيز يتمنيان غياب الأخ الصغير عن الغرفة، فالأخ الكبير وابن العم يتحدثان

أحاديث سرية، يتهامسان، ويخفيان أوراقاً، وأكثر من مـــرة رأى منشورات يتكرر فيها اسم الرئيس جمال عبد النـــاصر وعبـارة الوحدة الفورية، وجريمة الانفصال، بل ورأى مرة أكداساً مـــن صور الرئيس، وأخيراً تأكد أن أخاه وابن عمه يدبــــران أمـــوراً سرية، إذ يخرجان أواخر الليل ولا يعودان إلا في أوائل الصبـــاح مرهقين، خائفين، وفي الصباح كان الفتى الصغير يســـمع عـــن منشورات توزع في الشوارع، بل وفي المدرسة، لكنـــه أخفـــى ملاحظاته عن أخيه وابن عمه، وصار يقضي أكـــثر الأوقـــات خارج الغرفة، وكأنه يتركها عامداً ليتصرف الأخ وابن العم فيـها على هواهما. كان يقضي أكثر أوقاته في التنـــزه علـــى شـــاطئ البحر، أو بين كروم الزيتون المحيطة، أو في ركوب الدراجـــة، أو التسكع في الشوارع، إلى أن لمح ذات يوم،وكان قـــد صـــار في الصف الثاني الإعدادي فتاة جميلة تلعب في حديقة قصر صـــبري بك، وفي صباح اليوم الثاني لمحها وهو ذاهب إلى المدرسة خارجـة من باب القصر إلى المدرسة، وبعد الظـــــهر كـــان يتســـكع في الشوارع المحيطة بقصر صبري بك.

لا يعرف كيف أحب ماري، كل ما يعرفه أن الشوارع التي تحيط بحديقة القصر صارت أماكن نـــزهته وتسكعه، ماشياً كـان أم راكباً الدراجة، وقبل أن يتكلم كلمة واحدة مع ماري كان قد أحبها. لا أحد يعرف كيف تبدأ قصة حبه الأول، ففي صباح مـا يستيقظ الفتى ـــ أي فتى ـــ ليجد نفسه عاشقاً، وهكذا اســـتيقظ

ذات صباح عاشقاً ماري، بل ومصمماً على الكلام معها، ولكن كيف؟

صار كل صباح يوقت مروره أمام القصر في طريقه إلى المدرسة الساعة الثامنة إلا ربعاً، وقت ذهاب ماري إلى مدرستها. في البداية كان يخطئ التوقيت وأخيراً اهتدى إلى طريقة آمنة، عرف الشارع الذي تسير فيه إلى مدرسة البنات، يوقت وصوله إلى أول الشارع في الثامنة إلا ربعاً، كان الشارع طويلاً قليلاً، وكان يتباطأ في المسير وحيداً، بعد أن ترك عادة الذهاب مع أخيه وابن عمه: وخلال مسيرة على مدى خمس دقائق في الشارع لابد أن يصادف ماري في أوله أو وسطه أو آخره، وكل يوم يذهب بعد الظهر ويقضي كل فترة العصر والمساء متسكعاً حول القصر، منتظراً ظهور ماري على الشرفة أو في الحديقة، أو في الطريق، ثم قرر ذات صباح أن يقوم بخطوته الحاسمة؛ أن يقول لها «صباح الخير»، لكن المحاولة الأولى أخفقت إذ واجهها، ثم مر قربها، و لم يستطع نطق كلمة واحدة، وبعد أسبوع قام بمحاولة أخرى، واجهها ذات صباح، وابتسم في وجهها، وبعد أسبوع، وبينما كانت تقف على الشرفة في المساء، قام بضربته الحاسمة؛ رفع يده ثم أنزلها ووضعها على شعره، معتبراً ذلك إشارة تحية، وعندها رأته ماري وابتسمت بعد أن لاحظت حركته، فقد كانت تلك طريقة أبناء البلدة الصغيرة في الغزل. وقتها أحس أن قلبه صار أكثر أتساعاً من البحر الأبيض المتوسط، وأثقل من جبال القرية،

فأسرع في مشيته مبتهجاً نحو شاطئ البحر، وعندما وصل الشاطئ الرملي اندفع يركض بأقصى سرعة يستطيعها.

هذا المساء يكتب رسالة الحب الأولى والأول، وفي صباح اليوم التالي يتجرأ ويقترب من ماري في الشارع ليناولها الرسالة متابعاً سيره دون أن ينطق كلمة واحدة. في البداية اضطربت ماري عندما اقترب منها، لكنها تماسكت عندما رأت أنه مضطرب أكثر منها، وبعد الظهر لم يجرؤ على الظهور في الشوارع المحيطة بالقصر، وفي اليوم التالي سيتعمد أن يذهب مع كمال وعزيز إلى المدرسة حتى لا ينفرد برؤية ماري، ولن يستعيد شجاعته وهدوء أعصابه إلا في الصباح الرابع، عندما يرى ماري تبتسم في وجهه، عندها سيتجرأ ويقول تلك الكلمة التي قضى الأسابيع في انتظارها والتدرب عليها: صباح الخير.

وفي المساء مر من أمام شرفة القصر، وكانت ماري على الشرفة، رفع يده ومسَّد بها شعره، فقامت ماري بحركة مشابهة، دار حول القصر، وعندما واجهها كرر الحركة فأعادت هي رد التحية، وبعد أسبوع تجرأ واقترب من ماري في الصباح قائلاً بعد التحية:

ـــ انتظرك الساعة الثالثة عند باب اللاييك.

* * *

-٢-

كيف يكون الحب في المدن الساحلية الصغيرة؟ كيف يكون الحب الأول؟

صارت ماري تزور يوسف وتشرب الشاي والزوفة عنده، وتأكل من الطعام الذي يرسله له أهله من القرية، وصار يذهب وإياها يوم الجمعة إلى أرواد وإلى بانياس وإلى صافيتا، ويتسكعان مع بعض الزملاء والأصدقاء في حقول الزيتون وبساتين الليمون حول البلدة. يتبادلان الهدايا ويتحدثان عن دروسهما وأساتذتهما ويذهبان أو يقرآن معاً القصص التي يحاول يوسف كتابتها. في هذا العام صارت ماري تحدث يوسف عن أخوتها وأبويها، إلى أن عرفته ذات يوم على أهلها فاستقبله الأب بمودة كبيرة، إذ كانت ماري يومها تحتفل بعيد ميلادها الخامس عشر، وقد دعت بعض الفتيات والشباب، وضمنهم يوسف، وكانت أول مرة يدخل يوسف قصراً بهذه الفخامة، سحر يوسف بجمال القصر من الداخل، وبطريقة أهل ماري في التعامل مع بعضهم، ومع الضيوف، واستمع للمرة الأولى لماري وهي تعزف على البيانو. ومن يومها صار يوسف وماري يلتقيان كل يوم، ويتبادلان رسالتين كل يوم، إلى أن انتقلت ماري مع أبيها إلى دمشق، بعد أن أممت البنوك عام ١٩٦٥ وترك مدير البنك العربي قصر صبري بك.

صورة

كان النهار صحواً، نظر الناس إلى السماء فـــرأوا دبابـــات وعساكر وبوارج ومدافع.

كانت الحقول جميلة فرأى فيها الناس دبابـــات وعســـاكر وصواريخ وطائرات.

في البيوت، في الحقائب، في المعلبات، في النوم، في اليقظـــة، في الجبال، في البحر، في السهوب، ليـــس هنـــاك إلا العســـاكر والدبابات والبنادق، وكلها بيد رجل واحد يشـــهرها في وجـــه الناس، فأين يذهب الناس يا ترى؟!

لا مكان، لا زمان، لنذهب إليه. فالطـــائرات والدبابـــات والصواريخ والرشاشات تطأ الناس وتحصدهم، مثل حصادة قمح، بينما في الجو تحلق هائمة روح العقيد الشيشكلي، وكأنها تســـخر من الذين انقلبوا عليه.

فصل

يتحلقون تحت السنديانة الكبيرة في مجلسهم الصيفي اليومي، يشربون المتة والسجائر والشاي ويلعبون الطاولة والطرنيب والمنقلة ويتحدثون، فتحت السنديانة هو المكان المفضل لفلاحي وشباب "القيسية" حيث كل السكان يكادون يكونون أقرباء، وحيث لا يوجد مقهى أو ناد، والأهم حيث لا عمل في الصيف.

حاضر هذا العصر تحت السنديانة كمال وأخوه يوسف وابن عمهما عزيز، وأبو علي وأبو حسين وليلى أخت عزيز، وحاضر الشيخ طه والد كمال ويوسف، فها كمال ينتظر غداً السفر إلى القامشلي حيث يعلم منذ سنوات، أما يوسف فقد أصبح في الصف الجامعي الثاني. فجاء كبر جسمه الصغير منذ عامين مكتسباً ملامح الرجال، وبدا أطول من أخيه الكبير، وتغيرت ملامحه فنبت له شاربان كثان، و لم يعد ذلك التلميذ الخجول المنطوي. أصبح شاباً قوي البنية، يكثر من الأحاديث السياسية ومن قراءة الكتب، بينما لمعت نجمتان على كتف الضابط عزيز، وها هم يجتمعون تحت السنديانة على عادتهم كل صيف منذ أن وعوا على هذه الحياة، هم وآباؤهم، وربما آباء آبائهم، وأجدادهم.

قال أبو علي:

ـــ يا الله كيف تركض الأيام!!.. أمس كان كمال يلعب تحت هذه السنديانة، واليوم هو أستاذ..!

ـــ الأستاذ هو يوسف يا عمي!

أجاب كمال يسخر من أخيه، وكأنه يلمح إلى أحاديث سابقة، فيوسف منذ فترة بدأ يطرح آراء سياسية معارضة لآراء أخيه، وبشيء من التهجم والقساوة.

ـــ البركة فيكم كلكم.. لكن تذكر يا كمال أنك أول أستاذ في القرية,.. أول موظف.. اشرب.. اشرب متة.. اشرب

قال أبو علي متغاضياً عن سخرية كمال من أخيه، ومحولاً الحديث.

ـــ في العام القادم سأذهب أنا في دورة إلى روسيا و...

قال عزيز دون مقدمات، وكأنه يعلن حقيقة كبيرة.

ـــ أنت أول ضابط في القرية

قال يوسف بلهجة ساخرة وكأنه يرد على أخيه وابن عمه معاً:

ـــ يعني ألا أعجبك..؟

أجاب عزيز بشيء من الحدة:

ـــ لا. استغفر الله.. أنت وكمال تعجباني.. كثيراً.. كثيراً خاصة حماستكما.. أنتما..

كانوا يتكلمون وهم يشيرون إلى أحاديث ونقاشات سابقة، فكمال وعزيز من رأي سياسي واحد، أما يوسف فقد بدأ يشق

طريقاً فكرياً آخر منذ انفصلا عنه، وذهبا؛ عزيز إلى الكلية العسكرية، وكمال إلى دار المعلمين.

ــ حماستنا.. حماستنا.. لكننا لسنا متحمسين لأفكار مستوردة مثلك.. نحن متحمسون لهذه البلاد.. متحمسون لأمجادها ووحدتها..

قال كمال وهو يضع كأس المتة جانباً ويتهيأ لمواصلة حوار يدور منذ عامين مع أخيه، وكأنه أحس هذه المرة أن وجود عزيز حنيفه يعطيه قوة إضافية، ثم أضاف ساخراً:

ــ هذا ما تعلمته في دمشق.. هذا ما أرسلناك إلى دمشق من أجله..

ــ اتركونا من السياسة يا شباب .. اشربوا متة وارتحلوا.. العبوا طاولة.. منقلة.. نقمتم رأسنا من أول الصيف، أنتم...

قال أبو كمال ناظراً بشيء من عدم الجدية إلى نقاشات أبنيه، لكن كمال قاطعه موجهاً الحديث إلى يوسف:

ــ تقول عن نفسك اشتراكي .. تقول أنك تهتم بفقر الناس وعيشهم، لكن من الذي أقترح إنشاء جمعية تعاونية للنقل؟ أليست فرقتنا الحزبية؟ من الذي أقترح إزاحة الحدود بين أراضي الفلاحين وأن يعمل كل الفلاحين معاً ويزرعوا المحاصيل ويجنوها معاً ثم يتقاسمون المردود.. من؟ قل لي.. أنت أم أنا وعزيز؟.. من كان يوزع المنشورات ويحرض على المظاهرات بينما حضرتك كنت ما تزال مراهقاً تتسكع حول قصر صبري بك؟..

وحتى يخفف كمال من لهجته التي بدأت ترتفع، انعطف في حديثه وسأل يوسف متودداً:

ــ بالمناسبة .. ما أخبار ماري؟ سمعنا أنك تراها في دمشق، أما زالت القارئ الوحيد لقصصك؟ ثم ليعود إلى الحديث الأساسي تابع:

ــ أم أنك تركت غرام الفتيات ووقعت في غرام الأفكار الاشتراكية.؟

ــ هل تريد أن نتناقش جدياً أم أن تسخر ونتناقر مثل كل مرة؟

أجاب يوسف راغباً في النقاش الجدي

ــ يا يوسف .. تعبنا من الكلام.. ولا نتيجة.. سترى خطأك ذات يوم.. أنت أخي وأحبك.. أقول لك ابتعد عن هؤلاء الحمر.. هؤلاء أصحاب أفكار مستوردة..لا يؤمنون بالوحدة العربية .. كانوا مع تقسيم فلسطين، كانوا مع..

وباللهجة الهادئة النصوح نفسها قاطع يوسف أخاه:

ــ يا كمال.. يا أخي الكبير.. تعرف أنني احترمك وأحبك.. لكنني أقول لك ابتعد عن الأفكار المتعصبة والغوغائية.. ناقش كل كلمة وكل فكرة تقولها.. هل تستطيع أن تشرح لي نظرية الأفكار المستوردة؟.. أليست القومية فكرة مستوردة؟.. هل تستطيع أن تتحدث عن الوحدة العربية حديثاً عقلانياً لا حديثاً عاطفياً؟. إنشائياً، هل ..

ـــ معلوم لا أحد يعرف كيف يتحدث غيركم.. غـــيرك.. العقل والفهم والاشتراكية احتكاركم

قاطع عزيز يوسف، لكن يوسف تابع:

ـــ هل تعرف ظروف قرار ١٩٤٨..؟ هل تترك العموميات واللافتات ونتحدث في الملموس .. بطريقتك الاســـتفزازية.. في الأسئلة أسألك لماذا هزمتم في الـــ ٦٧؟... ستضع اللوم علـــى أمريكا..

ـــ هذه تعلمناها منكم، لكن لم تقل لي ما أخبار ماري.؟

أجاب كمال ضاحكاً وكأنه يريد تذكير يوسف بماضي كل منهما، وربما ليومي له أن هذه هي الموضوعات الـــتي يجـــب أن يتحدث فيها مع الأخ الأصغر.

ـــ لكن لماذا تغير الموضوع؟

أصر يوسف

ـــ لأنني تعبت من الكلام معك.. أنـــت لا تحســـن غـــير الكلام.. تقرأ الكتب وتأتي لتناقشني .. أتمنى أن تعشق فتاة فربمـــا تترك الكتب والسياسة.

ـــ اعشق يا يوسف.. اعشق..

قالت ليلى، أخت عزيز ضاحكة، وربما ساخرة من جديـــة يوسف في حياته، ثم تابعت:

ـــ اعشق.. فربما أن عشقت تبدأ في حلاقة ذقنك ولبـــس القمصان النظيفة.

ـــ يوسف زاهد مثل عمه محسن.. الله يرحمه

قال الشيخ طه بلهجة جدية

ـــ ويبدو أنه يسير على أفكاره..

قال أحد الفلاحين الجالسين

وحتى الاشتراكية التي تتشدقون بها، ثق أننا سنبنيها بينما أنتم تتحدثون عنها.. إذا كنتم تريدون الاشتراكية حقاً فانضموا إلينا.. اشرب متة.. اشرب يا يوسف..

ـــ ونحن العسكريين لا علاقة لنا بالسياسية

قال عزيز راغباً تقديم نفسه كممثل للجيش طالما قدم كمال ويوسف كل منهما يقدم نفسه ممثلاً لطرف سياسي.

أراد يوسف أن يتكلم، لكنه أحس باللاجدوى من متابعة هذا النقاش الذي صار كالاجترار، فمنذ أول الصيف، وهما يتناقشان ويتبادلان الكلمات والحجج والأفكار ذاتها، وها هو عزيز يؤيد كمال، والصيف يشارف كل نهايته، وغدا يسافر كمال، وقد يبقى فترة طويلة دون أن يراه، فلا ضرورة لان تكون اللحظات الأخيرة خصاماً.

ـــ تسألني عن ماري؟ يا سيدي عادت صداقتنا وستتزوج هاني أنت تعرف .. وأنا أريد أن أسألك عن جارتنا في حارة الرمل...

كان يوسف يلمح لابنة صاحب البيت الذي سكنوا فيه. ضحك كمال وأجاب:

ـــ لا تسألني عن الفتيات بحضور ليلى.

وقتها عرف يوسف أن كمال سيتزوج ليلى، فأحس بقلبه يهبط من صدره، ويتدحرج على الأرض أمام عينيه، فمنذ أول الصيف، منذ أن تركته ماري، وهو يحس ببداية مشاعر حب نحو ليلى، وكان ينتظر فرصة مناسبة ليعلن لها حبه، سمع كمال يتابع:

ــ ثم أن ليلى تطلعنا على الجرائد التي تعطيها لها.

وكمن ضبط بالجرم المشهود، فلم يعد له من ملجأ إلا الشجاعة، أجاب يوسف:

ــ أفكارنا ليست سرية و...

حاول يوسف متابعة الكلام والدفاع عن نفسه، لكنه شعر أنه خسر أمام أخيه، وأمام عزيز، وأمام ماري، وأمام ليلى.. خسر أمام نفسه، وأمام هذا العالم.

صامتاً مد يده إلى فنجان المتة وبدأ يشرب.

صورة

كان النهار صحواً، نظر الناس إلى السماء فرأوا دبابات وعساكر وبوارج ومدافع.

كانت الحقول جميلة فرأى فيها الناس دبابات وعساكر وصواريخ وطائرات.

في البيوت، في الحقائب، في المعلبات، في النوم، في اليقظة، في الجبال، في البحر، في السهوب، ليس هناك إلا العساكر

والدبابات والبنادق، وكلها بيد رجل واحد يشـــهرها في وجـــه الناس، فأين يذهب الناس يا ترى؟!

لا مكان، لا زمان، لنذهب إليه، فالطـــائرات والدبابـــات والصواريخ والرشاشات تطأ الناس وتحصدهم، مثل حصادة قمح، بينما في الجو تحلق هائمة روح العقيد الشيشكلي، وكأنها تســـخر من الذين انقلبوا عليه.

فصل

ليس للإنسان إلا وطنه؛ وليس للإنسان إلا أرضه. الإنسان كالنبات والإنسان كالشجر، لا يعيش إلا في موطنه، لا يعيش إلا في هوائه وألوانه، في مائه وترابه، في شمسه وظله. يحلم الإنسان بالهجرة، يبني الأحلام، أحلام الثروة والحرية، يتمنى رؤية هذا العالم خلف الجبال، يتمنى الهرب من فقر القرية ومن بؤسها؛ لكنه الحنين ينمو كلما ابتعد المرء، حنين العودة إلى ما ومن فارق، كلما ابتعد الإنسان في بلاد الله الواسعة، وكلما تقدم في العمر، يزداد شوقاً للأرض الأولى، للبيت الترابي الذي فيه ولد.. للحقول التي عمل فيها وشقي، للأشجار التي زرعها والأشجار التي سرقها وهو طفل، للناس الذين أحبهم، والناس الذين كرههم. هذا هو الإنسان؛ مخلوق عجيب من المتناقضات، من الحب والحنين والأسى، من الفرح والشقاء، يحلم بأن يكبر ويهاجر، وعندما يكبر ويهاجر يحلم بأن يعود إلى الأرض التي منها هرب، إلى زمن الطفولة التي كان يود أن يغادرها مسرعاً، لكن هيهات وهيهات، ولن يجد الإنسان إلا الحسرات والأحزان، لن يجد إلا الهرب والسلوان، وما من هرب وما من سلوان. هكذا تهرب الأشياء، وهكذا تستدير الحياة، وتبدأ تطاردنا بعد أن كنا نطاردها زمن الطفولة وهي تهرب راكضة أمامنا، فكيف تحول الهارب إلى

مطارد، كيف ومتى؟ لا أحد يعرف كيف تتبدل الأدوار، وكيف يفقد الإنسان مكانه في سباق المسافات الضائع والمضيع هذا، لكن لا جدوى ولا جدوى والإنسان يظل يحلم بلحظة واحدة، لحظة يحس فيها أنه يجاري هذا التدفق الأزلي، ويقف كتفاً لكتف ويداً بيد مع حركة الشمس ودورات الفصول، لكن شيئاً ما يسرقنا، يلاعبنا، يوهمنا أنه يركض مجارياً لنا، لكننا في لحظة ما نحس أنفسنا وراء كل شيء، وراء الجبال والبحار والفصول، وراء شبابنا وأشجارنا، ووقتها تبدأ النهاية، وتبدأ الحسرات ويقضي المرء بقية العمر حسرات على ما مضى بعد أن كان يستعجل آتي الأيام، وقتها يبدأ المرء محاولة يائسة للتشبث بالمستحيل، وهذا هو المستحيل، فالأيام تبتعد راكضة، هاربة، غير تاركة إلا الأحزان والدموع، إلا الحرقة والذكريات، إلا الأسى الدفين الذي يظهر فيما تبقى من وميض العيون التعبى عندما نصبح في الأربعين أو في الخمسين، ترحل الأيام وتتركنا مرميين، مرميين في المهاجر ومرميين في الأوطان، مرميين في الحقول ومرميين على الأرصفة، ترحل الأيام دون تلويحة وداع، ترحل مثلما يسافر الغريب؛ فمن هو الراحل؟ ومن هو الغريب؟ نحن أم الأيام؟.. لا أعرف وربما لا أحد يعرف، فمنذ أن هاجرت، ومنذ أن عدت من المهجر، وأنا لا أعرف شيئاً، لم أكن متضايقاً في البرازيل، وأستطيع أن أقول أن حياتي كانت رغيدة، صحيح أنني لم أجن ثروة كبيرة، لكن حياتي كانت جميلة، كنت أعيش مع امرأة برتغالية، أحبها وتحبني، وتعيش معي دون زواج رسمي ودون أولاد. كنت أرحل في

الغابات وعلى ظهري أحمل عدة الكشة، وكنت أعود إليها كل سبت وأحد. وأقضي يومين عندها، بقيت آخر خمس سنوات من حياتي في البرازيل أعيش هكذا، أتجول خلال الأسبوع في غابات البرازيل وأبيع، وآخر الأسبوع أعود إلى ايزابيلا. لم أسرق أموال الفلاحين و لم أخدع التجار، لم أقترض مالاً من تاجر ثم أهرب عائداً إلى الوطن مثل محمد يوسف الذي بنى البنايات في طرطوس من الأموال المسروقة. كنت أتعامل مع الفلاحين، وكانوا يعاملونني كأننا أهل قرية واحدة، ألم يكن دي سانتوس مثل أخي عندما مرضت؟. ألم تكن ايزابيلا زوجة وأماً وأختاً؟.. ألم يعلمني بدرو اللغة، ألم يكن فلاحو قرية "ميغير" مثل فلاحي "القيسية"؟ فكيف يستطيع الإنسان أن يسرق أهله؟.. كيف يستطيع الإنسان أن يسرق أحداً أو شيئاً، لكنهم لم يكونوا أهلي، و لم تكن قراهم قريتي، لم أكن أحس نفسي غريباً بمقدار ما كنت أشعر بالضياع، كنت ضائعاً، معلقاً في الهواء، نبتته بلا جذور، شجرة مطاطية كنت.

كانت ايزابيلا تسألني في أواخر أيامي معها: ما بك؟ و لم أكن أعرف ما بي. كانت تنام قربي، وكنت أرى القيسية في أحلامي. كنت أرى نفسي أزرع واشفط التوت والزيتون، كنت أربي في الأحلام دود القز، أزرع البصل والسلق والحمص والحنطة، كنت أفلح وأزرع وأحصد في الأحلام، وبدأت أتخاصم مع ايزابيلا وأنا لا أعرف السبب. كانت تبكي وتقول: طه.. ما بك.؟ ماذا فعلت لك؟.. لم تكن هكذا.. أنت لست كالسابق..

طه.. لماذا تجبر نفسك على أن تكون سيئاً معي؟ طه.. ماذا تريد؟ و لم أكن أعرف ما أريد، لكن ايزابيلا عرفت، فذات ليل قـــالت لي: طه.. أعرف.. أنت تريد العودة إلى بلادك .. عد.. ليكن الله معك.. وهكذا عرفت ما أريد، أريد "القيسية".. أريد العـودة إلى الوطن، يكفي خمسة وعشرون عاماً بعيداً عن بلادي، علـــي أن أرجع إلى جذوري، تعبت، تعبت من هذه الحياة المعلقة في الهواء، تعبت من هذا التنقل في قرى الغابات وفي غابات القرى، كرهت هذه الأشجار الاستوائية العملاقة التي يصغر الإنسان ويضيع تحت أغصانها، كرهت هذه الأدغال المخيفة، أنا مشتاق إلى شـــجيرات الزيتون اللطيفة، إلى السنديان والبلوط، إلى الخرنوب والقطلـــب، إلى التين والعنب، إلى الأحراش التي لا تعلـــو أشـــجارها قامـــة الإنسان، إلى بيت في القيسية تساكنني فيه زوجة تفـــــهم لغـــتي وذكرياتي، تعرف طفولتي وأرضي.. هكذا عدت.. عدت وأنا لا أملك إلا مبلغاً قليلاً تاركاً أكثر ما جنيت، وغير نادم، لايزابيـــلا، عدت أوائل عام ١٩٤٦ وخلال شهر تزوجت ابنة خالي ســـعدا، واشتريت كرمي زيتون، وفي نهاية عام ١٩٤٦ ولـــد لي ولـــدي الأول كمال، وبعده بعامين ولد يوسف، وبعدهمـــا لم تنجـــب سعدا، كنت أتمنى أطفالاً أكثر، لكنها قسمتي، وأنـــا راض بهـــا، وسعيد ، سعيد بالعودة إلى الوطن، فحياتي قبل العودة إلى القيسية لا أعتبرها حياة، قبل الهجرة عشت في فقر مدقع، وفي الـــبرازيل كنت كالضائع، كالحالم، وولادتي الحقيقية، حياتي بدأت عـــام ١٩٤٦ يوم عدت إلى الوطن، وكان الفرنسيون يرحلون عامها.

نعم، لقد عدت إلى وطن حر مستقل يحكمه أبناؤه، ولـــــه سيادته وعلمه، لقد أصبحت سورياً، و لم أعد ذاك "التوركو".

فصل
(١)

في هذا العالم يتعرف يوسف على أشياء كثيرة للمرة الأولى، في هذا العام بدأ يوسف يتعرف على العالم حقاً، ففي هذا العام يرى يوسف أباه الشيخ الصارم العنيد يبكي للمرة الأولى عندما استقال جمال عبد الناصر في حزيران، وفي هذا العام يرى أمه تبكي حزناً عليه لأنه مسافر إلى دمشق للدراسة في الجامعة، فهذه هي المرة الأولى التي يسافر فيها يوسف خارج القرية وأبعد من طرطوس، ثم هو ذاهب وحده كطالب وليس مثل كمال الذي سافر منذ عامين موظفاً إلى القامشلي ليعلم فيها، وفي هذا العام أيضاً يرى يوسف ماري بعد غياب طويل، فذات درس صبلحي، وفي الأسبوع الثاني من وجود يوسف في دمشق، يرى ماري ويجلس وإياها على مقعد واحد، ثم يعيرها دفتره، ماري، ماري التي لم يرها ولم يسمع عنها شيئاً منذ غادرت مع أبيها طرطوس إلى دمشق.

لم يلاحظ يوسف تغيراً كبيراً في شخصية ماري للوهلة الأولى، ولكنه أحس فيما بعد أنها أصبحت أكثر أنوثة وخجلاً، أصبحت أطول وأكثر نحافة، أصبحت مدمنة قراءة، وماذا تقرأ

هذه الفتاة الخجول؟ سارتر وسيمون دي بوفوار، أما يوسف فكانت قراءاته مختلفة، كان يقرأ في التاريخ والفلسفة، وكل أنواع الكتب التي كتبت قبل القرن العشرين. في البداية، اختلفا واتهمته بالجمود، والهروب من العصر، وكم هو رائع عندما تتحمس فتاة خجول في الاتهام والكلام، ثم اتهمته بأنه ريفي، واتهمها بأنها تجري وراء القشور وسفاسف الترجمة، ومرة نطق عبارة "الأفكار المستوردة" فضحكت وقالت "الأفكار المستوردة"؟ هذه العبارة تقال عن أفكار غير أفكاري، سأعرفك على أصحاب الأفكار المستوردة حقاً، وفي الصف الثاني كان يوسف وماري قد أصبحا عاشقين، ومع ماري، في حب ماري، تعرف يوسف على الحب الناضج ودخل المسرح للمرة الأولى في حياته، مع ماري عرف يوسف الحب الهادئ الهانئ الذي يحتاجه كل غريب، ومع ماري تعرف يوسف على أمسيات الموسيقى الكلاسيكية، وعلى معارض الرسم وحارات دمشق القديمة، مع ماري تعرف يوسف على الحب في ليل الشوارع الدمشقية المعطر بضوء القمر وشذا الياسمين، ومع يوسف استعادت ماري سنوات طفولتها على شاطئ البحر، مع يوسف تعرفت ماري على حياة الطلاب العرب وغير العرب الآتين من كل أنحاء العالم، وكل طالب يحمل فكرة وانتماء، وشخصية وعادات وتقاليد حياة: فأين غنى هذه الحياة من الحياة الفقيرة التي عرفتها في غرفة يوسف الصغيرة في حارة الرمل؟

هنا كانت المجادلات والخصومات السياسية، هنا كانت ليالي السهر والغناء والعربدة، هنا كـــانت الأحـــزاب والصداقـــات والخصومات والرحلات، هنا كان العشاق والمجدون والكذابـــون .. بيئة عجيبة من المتناقضات والفوضى والأمل، كـــانت هـــي الجامعة الحقيقية لهؤلاء الطلاب وليوســـف وليـــس مدرجـــات الدروس، كل شيء في هذا الوقت يتحرك، وكل طالب يحـــس بأعماقه بأنه المعنى شخصياً بهزيمة ١٩٦٧، وكل طالب يحـــاول أن يجابه الهزيمة بطريقته الخاصة، بعضهم اندفـــع في طـــرق الخمـــر والخمارات، وبعضهم غرق في غراميات ماجنة وداعرة، وبعضهم وجد خلاصه في حزب من الأحزاب أو في تنظيم من تنظيمـــات المقاومة الفلسطينية.. بعضهم.. وبعضهم.. أما يوسف الذي كان يحلم ويخطط أثناء المرحلة الثانوية مع فؤاد وجـــهاد للدراســـة في فرنسا، فقد تركهما يذهبان وأتى يدرس اللغـــة الإنكليزيـــة في جامعة دمشق، ثم غرق في حـــب مـــاري، وفي الكتـــب، ثم في السياسة، وكانت ماري هي التي قادته إلى طريق السياسة دون أن تدري، فلأنها تحبه أعطته منشورات كان يعطيها إياها هـــاني، ثم تعرف على هاني، وبعدها سبقها في الانتماء إلى الحزب عن طريق هاني، هاني أكثر طلاب اللغة الإنكليزية ذكاء وإطلاعـــاً، هـــاني الصامت الهادئ المتواضع، لكن بشعور دفين بالتميز، هاني الـــذي يرى كل الأفلام، كل المسرحيات، ويقرأ كـــل كتـــب فرويـــد وسارتر وماركس والغزالي وشكسبير، هاني الذي يعـــرف كـــل أسماء لاعبي كرة القدم، كـــل أبـــواب وألاعيـــب الشـــطرنج

والطرنيب، وكل الخمارات، هاني.. هاني.. هاني، ثم ماري التي ستترك يوسف في الصف الثالث مورثة إياه حزناً في القلب، وانكساراً سيبقى زمناً طويلاً...

(٢)

أبد الدهر ستبقى منكسراً يا يوسف... انكسرت يا يوسف يوم انتظرت الشيشكلي و لم يأت، وانكسرت يا يوسف يوم انتظرت عبد الناصر و لم يأت. انكسرت يا يوسف يوم سافرت ماري من طرطوس، و لم تعشق بعدها، بل دفنت رأسك الغض الصغير في كتب التاريخ والفلسفة وفي محاولات كتابة القصة كأنك تهرب من الواقع. انكسرت يا يوسف يوم كنت تجعجع ضد أبيك وفلاحي القرية تحت السنديانة وتهددهم بأنهم جيل هزم أمام إسرائيل عام ١٩٤٨ وأننا عبد الناصر ونحن سنهزم إسرائيل ونرميها في البحر خلال أربع ساعات، ثم بكيت مع أبيك وفلاحي القرية تحت السنديانة إياها وكأنكم أطفال فقدوا أمهم عندما استقال جمال عبد الناصر في اليوم السابع. انكسرت.. انكسرت.. لكنك لم تهزم، فلقد تعلمت الكثير، الكثير يا يوسف، تعلمت أن تحب الحقيقة والبشر، وأن تعمل في سبيلهما، وأن تسير وراءهما، ومن أجلهما إلى آخر العالم، وحتى إلى حتفك، تعلمت أن تحب هذه البلاد، هذه الحياة، حبا لا تكلف فيه، تعلمت أن

تحب العدالة، وأن تعمل في سبيلها، مع الآخرين وعلى طريقتك. ماري تذهب وتأتي، والبلاد تهزم وتصمد، وقد تنتصر، وأبوك، أبوك وفلاحو القرية جميعاً يبكون ثم يضحكون، لكن الإنسان الذي غرسته فيك الأيام، غرسه فيك بشر بلادك وشمسها وسحرها وأشجارها، غرسته فيك دمشق والقيسية وطرطوس وماري و هاني وعمك محسن, الإنسان الذي غرسته فيك الكتب والسينما والرسم والمسرح والموسيقى، الإنسان الباحث عن العدالة، لا يزول ولا يحول، لا يتحول ولا يفنى، هذا هو وحده الخالد، ووحده هو الجوهر الباقي، أن كان هناك جوهر باق، هزيمتك ستكون إذا ما تحطم، إذا ما تحول فيك هذا الإنسان، نصرك صمودك، ولست وحدك، لا، ليس الإنسان وحيداً، وأن خال نفسه هكذا في لحظات الأسى. ذهبت ماري، وها ليلى ابنة عمك، ليلى الجميلة كوردة، ليلى التي تفهم أحاديثك وتقرأ المنشورات التي تعطيها إياها، ليلى التي تعرفها منذ الصغر، وفجأة ها أنت تراها هذا الصيف شابة كصنوبرة، كيف كبرت ليلى في غيابي؟ ربما لا نلاحظ جمال من هم أقرباء لنا، نعتبرهم كأخوتنا، أشياء وأشخاص في محيطنا، حتى يغيبوا، أو نغيب نحن، أو حتى ينبهنا شخص غريب على المشهد، شخص ذو عين طازجة. وقتها قد نلاحظ جمال بلادنا، جمال قريتنا، جمال بحرنا وجبالنا، وقتها قد نلاحظ جمال قريباتنا.

هذه الصفحة تركها المؤلف بيضاء ليكتب عليها القارىء مايريد
أو مايراه من مشاركة في هذه الرواية

فصل

هل جن الشيخ طه، أم هو خرف الشيخوخة؟ أم أن ما يفعله هو عين العقل؟ كما يحلو لأبي علي، ذلك الساخر من كل شيء أن يقول؟ عجيب!! لقد تدروش الشيخ المعروف بعدم حبه للمشائخ، وأنعزل عن العالم الخارجي منذ ثلاث سنوات، لا يفعل شيئاً غير القراءة في الكتب، كتب أحضر أكثرها معه من البرازيل، مكتوبة بلغة لا يفهمها أحد غيره من أهل القرية، وكتب عربية اشتراها بعد أن عاد إلى سورية. قال أترابه وفلاحو القرية "اتركوه.. اتركوه يقرأ، ماذا تضر وماذا تفيد القراءة رجلاً عجوزاً مثله؟.. يتسلى" وتركوه، لكنه ومنذ أوائل هذا الصيف ترك دروشته وانعزاله وترك القراءة، وعاد يعمل في الأرض، عجوز في السادسة والسبعين يريد العمل في الأرض!! في كسر واستصلاح الأراضي البور!! لا ريب أن الشيخ طه يعود في أخريات أيامه إلى طفولته وشبابه، كما يفعل الشيوخ غالباً، لكن الأمر لا يقف هنا، بل هو يطالب ولديه وأقرباءه بالنقود لأنه يريد بناء مدفن، قبة له، وعندما رفض ولداه وأقرباؤه فكرته، صار يشتغل منذ الصباح في كسر الأرض، وعلى قدر جهده وطاقته كان يشتغل كما كان يظن، ولكنه كان في الحقيقة يحبو كطفل في شعاب الجبل الوعرة، أما بعد الظهر وعلى قمة الجبل الذي يتدحرج، على سفحه

صباحاً، فيحفر الأساس ليبني المدفن، القبر، الضريح، أو القبة كما كان يسميها، بعضهم نصحه بالراحة، والشيخ علي رفيق طفولته وحياته، والذي كان يغلبه دائماً في لعبة المنقلة، وعده بقبر فخم وبالصلاة عليه، أو البول على نعشه عندما يتوفى، بعد عمر طويل بإذن الله. سألوه لماذا يعمل في استصلاح الأراضي، وإلى من سيورثها؟ فالناس ما عادوا يشتغلون في الأرض، والأراضي المزروعة بارت: وحتى الزيتون ليس هناك من يقطفه كما قالوا، لكن الشيخ طه كان يصم أذنيه، مصمماً على متابعة الغناء في مواله، ولا يرد إلا بعبارة واحدة:

ـ من أراد أن يساعدني فليتفضل .. ومن أراد أن يعطي فليعط...

ووحده ولده يوسف أعطاه نقوداً، ليس عن إيمان بفكرة الأب المفاجئة والعجيبة، لكن شفقة، حتى لا يكسر خاطر شيخ حبيب، لكن الشيخ طه كان يلح ويلح طالباً المزيد، طالباً مبلغاً يكفي، ومن أين المال ليوسف الذي يفكر بتوفير مبلغ لتأثيث بيت بعد أن اتفق مع زميلته في العمل سعاد على الزواج آخر العام، وكيف ليوسف الذي يعيش، وسيعيش في دمشق كل حياته، أن يدفع تكاليف فكرة خرفة في القرية!؟ أما كمال فقد رفض إعطاء قرش واحد، متعللاً بأولاده الذين يأكلون حتى الحجارة، كما قال، والشيخ طه مستمر في العمل والطلب، بل آخر الصيف بدأ يشحذ ويشكو ولديه للرائح والغادي، فولداه قد تخليا عنه كما كان يقول،ولداه اللذان أعطاهما كل جنى حياته، فكيف يعق

الابن أباه، وكيف تنكر الشجرة أصلها؟! هكذا كان الشيخ طه يتساءل مستنكراً.

قارب الثمانين، فأي حياة عاش، وأي موت يقترب؟.. أي غابات رأى وأي بحار عبر!! ثم يقعد هكذا منتظراً الموت، معقول هذا؟! معقول أن يقعد هكذا وينتصر الموت وكأنه ما ولد وكأنه ما سافر، كأنه ما كان؟! ألا يستطيع الإنسان أن يقهر هذا الموت الآتي، أن يبقى.؟!.. ألا يستطيع أن يقهر الفناء والشيخوخة والمرض؟! هذا الإنسان الذي أخترع السفن والطائرات، أخترع الراديو والهاتف، هذا الإنسان الذي اكتشف البحار والفضاء والأعماق، ألا يستطيع أن يقضي على الموت؟!.. الإنسان.. الإنسان، كم هو جدير بالبقاء، بحياة دائمة، ماذا تفعل ثمانون عاماً؟!.. حياة واحدة لا تكفي، والإنسان جدير بحياة طويلة، عريضة، الإنسان جدير بحياة باقية، والحياة جميلة، فلماذا تهرب منا؟! الشباب لا يعرفون هذه المشاعر، هم يعيشون الحياة ولا يفكرون بالموت، والشيوخ، الشيوخ الذين يسمعون دبيب الموت يعرفون حلاوة الحياة بعد أن ذاقوها وقاربوا فقدها، فكيف يبقى الإنسان ولا يزول!؟ هل يعمل ليترك ذكرى؟ . شاهدة وشهادة تقول بعده: هنا عاش إنسان، هنا عاش فلان، هنا لعب وفرح وحزن وفلح وصنع، هنا على قمة هذا الجبل، في سفح هذا الوادي، في هذا السهل المنبسط، في هذا القبر، في هذه القبة، ثمة من ينتظر نفيراً يوقظه، زهرة يشم أريجها، شروق شمس يتفرج عليه، شمس أصيل تذوي وتغيب في البحر!؟ الشباب لا يفهمون،

يعتبرون الشيوخ مجانين، أو مخرفين. ربما يكون الحق مع هؤلاء الشباب، لكن ومع الشيوخ بغض الحقيقة، فالحياة جميلة، جميلة هي القرى، وجميلة هي المدن، جميلة هي الصحراء، وجميلة هي الغابات، جميلة هي الحياة، فكيف يرضى الإنسان أن يتركها، كيف

يرضى الموت مذعناً!؟.. وهذه القبب في قمم الجبال، هذه الأهرامات، هذه التي يسموها أضرحة ومدافن، وكرامات أولياء، هذه الكتب، ماذا تكون غير رفض للموت؟.. ليسموها ما شاؤوا، ولتكن كيفما كانت، فالشيخ طه الذي يعرف أنه سيموت مثل بني البشر، ويخاف الموت مثل بني البشر، سيبني مدفناً، شاهدة، قبة، لن يعتمد على الآخرين، ولن يوصي. هو الذي سيبني قبته بيديه اللتين تشققتا من الكشة والفلاحة، لن يترك جسده للتراب، ولن يترك ذاكرة قبراً ترابياً تسفوه الريح، لا يريد للناس أن يحزنوا ويتذكروه أسابيع وأشهراً، ثم ينسوه.. لا.. لا يريد الموت، إنه يريد البقاء في هذه الحياة الجميلة. يريد البقاء.. يريد..

فصل

أنت يا يوسف طه، أنت وها أنت ذا تقارب الأربعين، مـاذا فعلت وماذا حققت؟. كنت تحلم بتغيير القرية، ثم حلمت بتغيير سورية، وبعدها صرت تحلم بتغيير العالم، وكل ذلك خلال عشرين عاماً، والآن تجد أن حلمك الكبير، نضالك الأكبر سيكون مجدياً، وستكون منتصراً إذا حافظت على تماسكك وأخلاقك الشخصية، إن بقيت بمأمن عن هذا الفساد الشامل، إن منعت نفسك من سلوك طريق النفاق والفساد والرشوة، لاشيء بعد الثلاثين، هكذا كان يقول صفوان، عندما كنتما في العشرين، وكنت تحدثه عن الشباب الدائم، وعن الثورة الدائمة، لكن صفوان مات في حادث سيارة عابر، وأنت أصبحت متأكداً من حكمته أكثر مما كان هو متأكداً منها في حياته. عشت ستي عمرك الأولى في القرية، ثم انتقلت ست سنوات إلى ثانوية طرطوس: وبعدها إلى دمشق حيث درست اللغة الإنكليزية في الجامعة،وذهبت إلى الجيش، وخضت حرب ٧٣ وكدت تموت، لكن المصادفة هي التي أنقذتك، ثم عملت في الجزيرة، ثم في دمشق، ثم نقلوك في دمشق من التعليم الثانوي إلى وزارة التموين حتى لا تبث أفكارك المستوردة في الأجيال الجديدة، وضعوك في عمل يتيح لك الرشوة، بل ويشجعك عليها،مراقب ضبوط

تموينية، فإذا كنت رجلاً شريفاً، إذا كنت صاحب أفكار ومبادئ حقاً، فابق ثابتاً، ولكنك ستكون أضحوكة ومهزأة. اسرق، أرتش، لكن لا تُعَلِّم التلاميذ هذه الأفكار المستوردة!! أما بلاد!! أما بلاد لا يستحي فيها السارق من فعلته، بلاد يعتبرونك فيها مخفقاً لأنك لم تسرق مسروقات غيرك، لم تسرق تعب أحد، لم تسمسر ولم تشتر عقارات، لم تكذب على أحد ولم ترض من أحد أن يكذب عليك، لم ترض أن يهين عقلك وأفكارك أحد، لم تر بوصلة في هذه الدنيا إلا الأفكار والعقول والشرف، فاندفعت تقرأ وتقرأ بعد أن اعتزلت الناس فازددت اغتراباً عن هذا الواقع وفيه وأنت تحاول فهمه، وازداد اتهام الناس لك بالجنون وخفة العقل، والناس صاروا هذه الأيام لطفاء ومهذبين إلى درجة تجعلهم يقولون في وجهك "أنت مثالي" ويتسمون ليفهموك أن مثالي هذه تعني بالنسبة لهم أنك حمار، حمار أنت يا يوسف بع كتبك وأشتر بيتاً، وبدل تبديد أموالك على الورق، أسكن في بيت محترم واترك هذه الغرفة. منذ تركت القرية، وأنت تنتقل بين الغرف المستأجرة، في طرطوس عشت في غرفة مستأجرة، وفي دمشق استأجرت غرفة، وفي الجيش كنت في غرفة، ستمضي حياتك هكذا من غرفة إلى غرفة، وما أكثر الناصحين، أعمل.. اترك.. لا تعمل.. هذه فتاة جميلة، ما رأيك بندى؟ هـ.. و.. و.. وأنت تهرب من أحاديثهم بالمزاح حيناً، وبالتجاهل أحياناً، بالذهاب إلى السينما وحيداً، بقراءة الكتب، لكنك الآن تدرك أنك تعبث مثل عبثهم، ولكن بطريقتك

الخاصة، بطريقة ربما تجعلك تبدو متميزاً في نظر نفسك. نعم أنت تلعب لعبتهم العبثية، لكن بطريقتك الخاصة، هكذا أنت، وهكذا كل إنسان يمثل دوره، فهذا لص، وذاك شريف، هذا وزير وهذا بائع على الرصيف، والوجود لا يدور إلا هكذا.. وجود عجيب!! لكن أرأيت أين أوصلتك أفكارك العبثية؟ هل كنت تظن نفسك ستفكر هكذا ذات يوم؟ هل تستطيع أن تعلن أفكارك هذه أمام كمال وعزيز؟. من كان يظن أن كمال صاحب فكرة الجمعية التعاونية للنقل في قرية القيسية، وصاحب فكرة إزالة التخوم بين الفلاحين وإعلان كومونة زراعية في القرية سيكون عام ١٩٨٥ أباً لسبعة أطفال، وصاحب دكان في القرية يبيع المهربات من لبنان؟! والذي يأتي بالمهربات هو المقدم عزيز بسيارته العسكرية! ليس حلماً ما رأيته هذا المساء يا يوسف في القرية، فالسيارة هي سيارة المقدم عزيز، والذي كان يتناول البضائع منه هو كمال وأولاده، كمال وليلى التي كنت تعطيها الجريدة وتتمنى أن تتزوجها، والأطفال الذين يساعدون أباهم وأمهم هم أولاد أخيك يا يوسف، واللذان احتقراك ووصفاك بالعاجز والمثالي والمتوهم، بل بالفاشل في أول هذا الليل، هما كمال وعزيز وليلى، ليلى التي وصفتك تأدباً بالمثالي. لا، لم تكن متوهماً، فالبضائع يهربها المقدم عزيز من لبنان، والذي يبيعها هو الأستاذ كمال، الأستاذ كمال يعلم الأطفال قبل الظهر في المدرسة، وبعد الظهر يبيعهم البضائع المهربة. أأنت تطعم أطفاله السبعة؟!.. وماذا يفيد راتب المعلم الابتدائي سبعة أطفال

وزوجة!.. لا تتحدث عن الأخلاق وأنت مرتاح يا يوسف، لو كنت مكاني ماذا كنت تفعل؟.. ابق مع أفكارك وكتبك، ابق مع أوهامك، وعندما يكون لك مثلي سبعة أطفال، لن تقنع مثلي بالتهريب، بل ربما كنت ستشتغل قواداً، هكذا يقول لك كمال بلهجة مهاجمة، بلهجة لا تتكلف دفاعاً، لاتبعني أخلاقاً ومدناً فاضلة.. لا تهرب لي هذه البضاعة، هربتها قبلك، وهي البضاعة الوحيدة التي سجنت لأني كنت أهربها عام ١٩٧٢ وعزيز لماذا يا عزيز، أين سهر الليالي، أين هي المناشير التي وزعتها في الليالي، أين صارت الدروب التي تسللت فيها؟ كلنا يعرف أنك كنت الطالب الذي يتسلل إلى المدرسة ليلاً ويضع المناشير في غرف الصف وفي غرف المدرسين. أنت يا عزيز لماذا تفعل ما تفعل؟! أنت لم تتزوج وليس لديك عائلة تتقنع بها، لكن لماذا تتعجب يا يوسف؟! فمن بقي دون أن يكسر، دون أن يسقط في هوة ما، من بقي إلا أصحاب الأوهام الذين لا يدرون في أية حفرة يهوون ودون أن يدركوا ما حل بهم، هؤلاء الذين يرفضون أن يروا ما يحدث لغيرهم ولهم.. قل لي من لم ينكسر؟ تذكر خليتك الحزبية الأولى في الجامعة فيصل هاجر نهائياً وأستقر في معهد أبحاث فرنسي، محمود ما زال عاملاً في الشركة الحماسية، لكنه ترك الحزب، ماري تركت الحزب وهاني وذهبت بوساطة أبيها في منحة إلى بريطانيا، وها هي الآن الدكتورة ماري في قسم اللغة الإنكليزية.. هاني.. آه يا هاني أصحيح ما يتحدثون به عنك كيف تغيرت هكذا، كيف انهزمت هكذا؟ كيف استسلمت هذا

الاستسلام المخزي؟! وأنت، أنت يا يوسف، هل أنت ما زلت على أفكارك أم تركتها، هل أنت ضمن الحزب أم خارجه؟ أنت لا تعرف وهم لا يعرفون مشغولون بجثتهم المحنطة ، وليوهموك أنها حية، هذه الجثة الخرفة، هم يعبدونها، وفي عبادتها لهم كل يوم خلاف، وكل يوم تسمع الكلام المكرور إياه يوم دخلت الحزب: البلد يمر بظروف خطيرة، في السلطة تياران واحد يميني وواحد أقرب إلى اليسار، في الحزب تكتل انتهازي، أحياناً يكون انتهازياً يمنياً وأحياناً يصير انتهازياً يسارياً. أثبتت الحوادث صحة خط حزبنا. فكر بنفسك يا يوسف، ها أنت تقضي أسبوع إجازة في القرية، في الحقول التي ولدت فيها وبين الأشجار التي ربتك، هل تذكر.؟ أنا قصة قصيرة من قصص قريتي, من قصص هذا العالم هذا ما كنت تمازح ماري به، ها أنت ذا بعيد عن عزيز وكمال اللذين تربيت معهما، وعن ماري وهاني وعصام ومحمود الذين ذهبوا بعيداً عن الأفكار التي عشتم في سبيلها، الأفكار التي كونتكم. لست حائراً إلى من تنضم في هذه البلاد، بل أصبحت حائراً عمن تبتعد أكثر. عزيز وكمال يثيران في نفسك الغضب والتقزز، وعصام وهاني يثيران الشفقة، أما سعد الذي تحبه، سعد الملتزم حتى النهاية، والغارق في تفاصيل الخلافات الحزبية الضيقة، مع فلان ضد فلان، فلا تعرف ماذا ستقول له، سعد صديقك الوفي، سعد الدكتور في العلوم يأتي يقول لك: ما يقوله الأمين العام هو البوصلة. أين العلم يا سعد، أين المنهج العلمي، أين الأفكار والمبادئ التي أعطيناها زهرة شبابنا؟ أين العقل؟ المعرى

منذ ألف عام سبقكم وقال لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء لماذا أتعبت نفسك يا سعد بدراسة العلوم في فرنسا و لم تدرس الشريعة في جامعة دمشق. ستجن يا يوسف ذات يوم. ستجن قريباً، أو ستكون العاقل الوحيد فيمن تعرف عندما تجن في هذه البلاد المجنونة. برجوازي صغير سيقول عنك سعد، أصبحت تعرف همهم الجاهزة كأفكارهم، كن يوسف يا يوسف. كن صلباً مع نفسك ومع الحقيقة. عبث كل ما عشت وكل ما فعلت. الآن تكتشف يا يوسف أن كمال مثل هاني، وهاني مثل عزيز، وسعد مثل محمود، وأنت مثلهم جميعاً،وكلكم ذباب عابث يحوم على هذه الجيفة السرمدية النتنة ظاناً نفسه يعيش أو يصنع التاريخ. دع كل شيء. دع أفكارك وكتبك، بيع كتبك كلها للنقيب عثمان نحاتي. دع هؤلاء الأشخاص الذين تفكر فيهم. قم يا يوسف. قم من شرودك وأفكارك التي لا تفيد. قم وتجول في أحراش قريتك. الأحراش التي دفن فيها المرحوم أبوك، الأحراش التي قال لك عنها المرحوم والدك أن جمالها آت من أنها أقصر من قامة الإنسان، فالإنسان الذي يتجول فيها يحس نفسه مطلاً وسيداً عليها، مطلاً وسيداً على الطبيعة وفيها، سيداً وليس دودة تائهة في غابة متشابكة مثل مجاهل الأمازون، لكنك دودة تائهة يا يوسف، دودة ماذا تستطيع أن تفعل لاشيء تستطيع فعله يا يوسف فقم. قم، قم إلى..."*.

---

*ملاحظة للناشر: نهاية صفحة وليس هناك تتمة بعدها.

فصل

... هذا ليس مرضاً وليس أرقاً، هذا خوف، خوف من زوجي وأطفالي، خوف من سيارات الطريق، خوف من كل رجل يحمل مسدساً، خوف من التلفزيون، من الكتب، من السينما خوف من الأفكار ومن البلاهة، من الذكاء والغباء، خوف أراه ماثلاً في أي شخص وأيما شيء، خوف من اللحظة وفيها، خوف أداريه عن أطفالي وأصدقائي وزملائي، وأحاول أن أخفيه عن نفسي.. خوف.. خوف.. خوف وما عدت أستطيع أن أحادث أحداً، أنام وحدي، أكل وحدي ووحدي أجلس في غرفتي، أحاول القراءة فلا أستطيع، أحاول النوم فلا أستطيع، أحاول السلوى وما من سلوى، أحاول.. أحاول.. أحاول.. فمن أين يأتيني هذا الخوف؟..

ها أنذا الآن جالس أكتب، أحاول أن أحلل نفسي وأن أفرغ مخاوفي على الورق، أن أواجه ذاتي كما يقال، وأن أصفي الحساب مع نفسي فلعل ذلك يساعدني على فهم حالتي، وفي التخلص من خوفي، أليست تلك طريقة طبيب التحليل النفسي في معالجة مرضاه؟ فلماذا أنا خائف يا ترى؟ فلا تذكر تاريخ حياتي، فربما يكون تاريخ حياتي هو تاريخ خوفي، هو تاريخ حالتي، تاريخ مرضي.

ولدت عام ١٩٤٤، أبي حلاق، وليس في حياتي حادث مفاجئ أو كبير، دخلت مدرسة الحي الابتدائية في القيمرية، ثم تعلمت في ثانوية جودت الهاشمي؛ وبعدها درست اللغة الإنكليزية في جامعة دمشق، ثم أديت خدمة العلم وبعدها تزوجت وأنجبت طفلين، وأنا "سعيد" في حياتي، أو هكذا أبدو، وربما هكذا يجب أن أكون أو قل كنت سعيداً حتى داهمتني حالة الخوف هذه.

قرأت كتباً كثيرة، رأيت مئات الأفلام، أحببت عدة فتيات، والآن أتذكر ماري بشكل خاص، دخلت حزباً سياسياً ثم خرجت منه بعد أن رأيت ما رأيت، وعانيت ما عانيت، بعد أن اقتنعت أن التخلف هو سمة لليسار مثلما هو سمة لليمين، والخلاف في الدرجة، وربما في الأفق التاريخي، فتخلف اليسار له دواء، وقد يزول ذات يوم، أما تخلف اليمين فهو داء لا دواء له، تخلف اليمين هو جهل وظلامية وبربرية، أما تخلف اليسار فهو مرحلة تاريخية قد تنقضي.. لكن كل هذا تفاصيل وآراء فالمهم أن هيكل حياتي الأساسي هو هيكل عادي لا التواء فيه ولا بروز على الرغم من أن رفاقي وأصدقائي يعتبرونني ناهاً وناضجاً، وهم يقولون أن إطلاعي كبير، ومقدرتي على التحليل السياسي متميزة، وحتى رفاقي في الحزب يتأثرون بآرائي وتحليلاتي، ويوسف الذي هو صديقي وزميلي ورفيقي يمازحني دائماً وهو يقول: لماذا لا تتزعم انشقاقاً في الحزب بدل أن تخرج وحيداً، افتح دكاناً، أعني حزباً مع بعض الرفاق، فأنت تستطيع التأثير على عشرة رفاق ناهين ومن غير حارتك، وأنا معك

شرط أن تضعني في مكتبك السياسي، فأنا على الأقل أعرف أن أقرأ وأكتب، أم أنك مثل غيرك لا تريد في مكتبك السياسي غير أمثال فهد جوهرة وخلف القطيش وعبد الوهاب آل رشو؟..

تفاهات.. تفاهات.. ما كنت أظن أننا سننحط فكرياً وسياسياً إلى هذا الدرك، ما ظننت يوماً أن نظرة عقلانية قد تنحط إلى مستوى عبادة الجثث الحية، إلى مستوى.. لا أعرف ماذا أقول..

أمضيت عشرين عاماً وأنا أهتم بالسياسة، لست نادماً،وما أزال أعتقد أن حياة البشر وقيمهم وأفكارهم إنما تنسج من تفاصيل الحياة اليومية الزائلة، هي مدر السياسة حقاً، لكنها مدار حياة البشر كذلك. أبي كان يقول لي عندما عرف انتمائي السياسي وطموحي لتغيير هذا المجتمع: لا تتعب نفسك يا هاني، لن تجد لسنة الله تبديلاً. لست متحيلاً عن قيمي وأفكاري بعد، ولكني متشكك في كل شيء، وخائف من كل شيء، خائف.. خائف.. خائف من الماضي والحاضر والمستقبل، خائف، فكيف أستمر في حياة هكذا؟.. كيف أستمر في خوف كهذا؟..

خوف يمنعني من الحركة، من القراءة، من التفكير، من النوم، من السهر، الليل لا أرقد فيه لحظة واحدة، أمضيه كله يقظاً، أدخن وأشرب الشاي والقهوة والعرق والنبيذ وما أصادف.. أبقى ساهراً حتى آذان الفجر، صرت أسمع آخر كل ليل آذان الفجر يتعالى من كل مآذن دمشق؛ في الماضي كنت أسمع هذا الآذان وأنا عائد من جلسة نقاش سياسي أو سهرة شرب. أما

هذه الأيام، فأسمعه وأنا جالس في فراشي أو على كرسي مبحلقـاً في اللاشيء.. مبحلقاً في اللاشيء أو كأنني أنتظر شياً أو حدثاً أو شخصاً.. في الماضي كنت أسخر من هذه المآذن والقباب، أمـا الآن فإنني أخافها,.. أحسها وكأنها حيات، حبال تلتف حـول جسدي وعنقي ورأسي، حول عقلي وقلـبي أحسـها وكأنهـا ستشنقني، أحس هذه المآذن وكأنها..

آه .. لا أعرف.. يبدو أن الكتابة أفرغت خوفي، وأنسـتني نفسي، أتعبتني جسدياً، وفكرياً بحيث بت أستطيع أن أنام.

١ ــــ ملحق

ثلاث قصص كتبها يوسف بعنوان:
"شجرة مثقلة بالذكريات"
وقصيدة

١ ـ مقهى

«وكان هناك مقهى يرتاده العدميون، ومـــن
يصنعون القنابل سرية إنهم أخوتي»
سعدي يوسف.. البحث عن خان أيوب

في الخامسة كان قد أستيقظ. فتح النافذة. غسل وجهـــــه. نظف غرفته، رتب سريره، وككل صباح، خرج إلى المقهى، لكنه اليوم كان يسير باتجاه مقهى جديد، بينما صورة المقـــهى الـــذي كان يرتاده كل يوم ما تزال تملأ. مخيلته:

«قاعة كبيرة. نوافذ طويلة تطل على الشارع. دكك خشبية في الداخل. محمود النادل بقامته القصيرة ووجهه المغضن وذقنـــه غير الحليقة دائماً: تفضل قهوتك. يعرف ما أريد دون أن أطلب. حسين أبو لطيف جالس في الزاوية. أبو يوسف يدخـــل ويلقـــى صباح الخير عالية على المقهى حتى ولو كان خالياً. عبد المعـــين الرفاعي أمامه نرجيلته. عبد المعطي الصيداوي يصرخ: شاي حلوة يا بني.. يا محمود. صياح خدام الجامع يخرج تنباكه الخاص مـــن

جيب سترته الأيمن. رائحة القهوة الطازجة وبخارها. برودة الصباح العذبة. النسمات. حبيبات الماء البارد تسيل على كأس الماء الصافي. المرأة ذات النظارة تمر منذ خمسة عشر عاماً على الرصيف المقابل. السيارات تكون قليلة في السابعة وفي الثامنة يزدحم الشارع. بائع الجرائد يدخل دون أن ينادي، يتجول بين الطاولات. الشاب ذو النظارة يفرد كتبه على الطاولة الرخامية ويشرع في القراءة. أخبار الساعة السابعة من إذاعة لندن والسابعة والربع من إذاعة دمشق. الرجل ذو الطربوش، آه لقد توفي منذ عشر سنوات، بقي يجلس وحيداً في المقهى كل صباح دون أن يتكلم مع أحد منا. أبو فهمي وأبو موفق ظلا ثلاثين عاماً يأتيان ويخرجان معاً، وعندما مات أبو فهمي ما عاد أحد يرى أبا موفق في المقهى أبداً. بعد ستة أشهر توفي أبو موفق. غريب أمر الناس كلنا كنا نلبس الطرابيش منذ خمسين عاماً. الطاولات كانت خشبية كانت من القش . مذاق قهوة الفحم كان أطيب. صوت سيد درويش. صالح عبد الحي. صوت أم كلثوم. أم كلثوم الله يرحمها. أم كلثوم تغني في المقهى. آه كانت في بداية شهرتها. خالد العظم يخطب في المقهى أثناء الانتخابات. رحمه الله كان وطنياً. المقهى أغلقوه أثناء حرب السبعة وستين. المظاهرة التي أغلقت المقهى عام.. عام.. يا أنا عام.. ربما عام أربعة وخمسين. الشيشكلي. حرب عام أربعة وخمسين. انقلاب حسني الزعيم كان عام تسعة وأربعين. في حرب السبعة وستين أغلقوا المقهى.

عام ثلاثة وثلاثين.. عام ثمانية وأربعين. عام واحد وستين.. عـــام سبعة وستين.. عام ثلاثة وثمانين.. عام.. عام.. عام..".

كان قد وصل المقهى الذي قرر أن يتناول فيه فنجان قهوتـه الصباحي، أن يجربه، فلعله يرتاده بعد أن باعوا مقـــهاه القـــديم ليحوله أصحابه الجدد إلى "سوبر ماركت". دخل المقهى الجديـد. لم ير أبا حسين، لم ير محمود النادل لم يروجها يعرفه أو يألفه و لم ير الدكة الخشبية و كراسي الخيزران، وطاولات الرخـــام. أتجـــه يساراً نحو نافذة المقهى التي تطل على الشارع كما كان يفعـل في مقهاه السابق. قعد على كرسي متكوماً على نفسه كغريب. نظر إلى ساعته. كانت السابعة. لم يسمع أي مذياع يذيع نشرة أخبار لندن. نظر عبر النافذة. لم ير في الشارع أي مار يألف وجهه. مر أشخاص غرباء عنه. مر طفل يحمل باقـــة ورد وحقيبـــة كتبـــه المدرسية. مرت فتاة مسرعة. جاءه النادل، سأله: ماذا تريد يـــا عم؟ طلب فنجان قهوة، "سكر قليل" أوضح .رشف رشـفة أولى بينما بدأت الدموع تنسرب من عينيه وهو يفكر:

"لماذا أغلقوا مقهاي بعد هذا العمر الطويـــل. أمـــا كـــان بإمكانهم أن ينتظروا حتى أموت"؟

لم يستطع رشفة ثانية. قام ومشى. مشى في برودة الصبـــاح كأنه غريب يدخل مدينة أجنبية كبيرة للمرة الأولى، ولا يعـــرف أين يبل ريقه بفنجان قهوة، مشى وفي شوارع الصبـــاح كأنـــه هارب من عدو لا يعرفه. مشى في صباح الشوارع في شـــوارع

الصباح، مشى كأنه.. وكأنه.. وكأنه.. مشى وحيداً وكأنه يمشي إلى مقبرته.

(٢)

موت

هذا الصباح، أفاق أحمد بن محمد أفندي مبكراً، وفي نيته أن يذهب إلى الكرم وتحضر عنباً وتيناً تفاجئ هما أهله على مائدة الإفطار، وعندما فتح باب الدار فوجئ مما رأى: فعلى الطريق العام، وقرب عتبة الباب كان هناك جثة ترقد مشبوحة ويداها ممدودتان باتجاه باب بيته، ثم ما لبث أن عرفها؛ أنها يوسف أحمد المحمود.

* * *

ها قد مضت أربعون سنة ويوسف أحمد المحمود ما يزال يتذكر "الجفت" ومنذ عشر سنوات تقريباً صار يمر كل يوم على بيت محمد أفندي الذي توفي منذ عشرين عاماً وتفرقت عائلته بعد أن ترك أولاده القرية، مثلما تركها أولاد يوسف أحمد المحمود الذي أصبح عجوزاً في السبعين يرفض أن يترك القرية، وما يزال يعيش مع عجوز ما تزال قادرة على أن تغسل وتطبخ ما يكفيهما، وعلى كل حال أصبحت الحياة أكثر سهولة هذه الأيام، فالماء والكهرباء والطريق المعبدة كلها وصلت القرية، وثمة مساعدات أبنائه وأحفاده البررة الذين يزرونه دائماً حاملين الألبسة والأطعمة والنقود وكل ما يحتاج، لكن يوسف ومنذ أن ترك الخدمة في بيت محمد أفندي منذ أربعين عاماً، ما يزال يتذكر

ويأمل، يتذكر الجفت ويحلم باقتنائه، يحلم باقتنائه منذ أن كان يصيد به أو يحمله بين يدي سيده محمد أفندي.

* * *

في حياة محمد أفندي لم يكن يوسف يجرؤ على مفاتحته في الموضوع، وحتى بعد أن ساءت أحوال الأفندي المالية في أواخر حياته، لكن، ذات يوم، بعد أن توفي محمد أفندي، وترك يوسف الخدمة عند أولاده، بعد أن تركوا هم القرية، وتفرقوا في أنحاء مختلفة، ذهب يوسف ذات يوم إلى الأستاذ أحمد بن محمد أفندي الذي آل إليه الجفت، وعرض أن يشتريه، لكن الابن رفض وقال أنه يريد أن يحتفظ بهذه الذكرى الغالية من أيام أبيه، وسيصونه في مكان مأمون، وفعلاً بقي الجفت ثلاثين عاماً في صندوق مغلق إلى أن تحسنت أحوال أبناء محمد أفندي، وخاصة الأستاذ أحمد الذي اشتغل في مرفأ طرطوس وكيلاً لتموين البواخر، ثم بنى منذ عشر سنوات قصراً حديثاً مكان بيت أبيه القديم، والقصر القديم — والأستاذ أحمد هو الذي يسميه قصراً وليس كاتب القصة — مؤلف من طابقين، تستخدم غرف الطابق العلوي للنوم والمعيشة ولعب الأولاد، بينما صار الطابق السفلي كله قاعة كبيرة خصصت للاستقبال والسهرات، علق في صدرها صورة الوالد محمد أفندي وفوقها الجفت.

* * *

صار يوسف يأتي كل يوم إلى القصر الذي ما يزال مصراً على تسميته بيت محمد أفندي، أحياناً يأتي في الصباح، وأحياناً

يأتي عصراً، وكثيراً ما يأتي أواخر الليل، كان يأتي مرتبكاً، خجلاً، ويطلب الأذن بالدخول، وبعد أن يدخل فإنه يتوجه مباشرة إلى صدر القاعة، وتأدباً كان ينظر إلى صورة محمد أفندي أولاً وهو يدمدم: (رحمك الله يا أفندي) وبعدها يبدأ في النظر إلى الجفت المعلق فوق الصورة، ثم يتقدم باتجاهه، ويقف مبحلقاً فيه، وبعدها يتقدم أكثر، ثم يتناول الجفت عن الحائط، يتأمله ثم يقلبه بين يديه كالمذهول، وهو يتكلم:

"جفت قديم. بضاعة قديمة، بضاعة قديمة ليس لها أية قيمة. صار هذا الجفت انتيكة لا أحد يهتم بهذا الجفت. لا أحد يمسحه. لا أحد ينظفه. هذا الجفت سيخرب قريباً. سيصبح مثل عصا. جفت قديم غير صالح للاستعمال، ما رأيكم في أن تبيعوني إياه؟ كم تريدون ثمناً له؟ مائة ليرة؟ مائتين ألفا؟ عشرة آلاف؟ كل ما أملك، كل مالي؟ كل أرضي؟ كل.. كل.. كل.. كل شيء؟ أعطوني هذا الجفت. أعطوني هذا الجفت، وبعد أن أموت أعيدوه وعلقوه على الحائط. على هذا الحائط. حرام. حرام أن يبقى معلقاً هكذا. حرام ألا يعتني به أحد. أعطوني الجفت وخذوا ما تريدون. خذوا كل ما أملك. خذوا.. خذوا.. خذوا.. خذوا.. كل ما أملك وأعطوني الجفت".

* * *

بالطبع كان آل محمد أفندي يعجبون من سلوك العجوز في البداية، وأحياناً يتضايقون من زياراته اليومية، وخاصة زياراته أواخر الليل، أو عندما يكون عندهم ضيوف كبار، لكن مع الأيام

بدأوا يتندرون عليه، وبعدها صاروا يسخرون منه، بل أن القصة انتشرت في القرية ومنطقة الدريكيش كلها، وبدأ يوسف يتحول في نظر الناس من عجوز وفي وطيب، إلى عجوز خرف، فمجنون يكفي أن تفوه أمامه بكلمة "جفت" حتى يبدأ حديثاً طويلاً عن أيام الجفت والأفندي والصيد والدبكة في الأعراس والتجول في الحقول والعنب والتين والزيتون والعصافير والسنديان والبلوط والقطلب والجبال والوديان والأتراك والفرنسيين وشكري القوتلي والشيشكلي وجمال عبد الناصر.. و.. و...

وذات صباح على باب الطابق السفلي من قصر ابن محمد أفندي وجدوا يوسف أحمد المحمود جثة مشبوحة ويداها ممدودتان باتجاه باب القاعة الكبيرة.

١٩٨٣

٣- التفاح السكري

(١)

يتجول في السوق القريب. يتفرج على البشر والأشياء. يتوقف أمام دكان صاحب قديم ملقياً التحية. يدخل مسجد الحارة ويصلي ركعتين. يبقى فترة. يقرأ في القرآن. يصلي ركعتين أخريين، ثم يعود إلى منزله حيث لا أحد ينتظره إلا الموت. هذه أيام يوسف، وهذا أخر ما تبقى له.

(٢)

هذا الضحى، ومثل كل ضحى، تجول في سوق الجمعة، أندس بين الشارين وهو لا يريد أن يشتري شيئاً. تفرج على الخضار والفواكه والبضائع. دخل جامع الشيخ محي الدين بن عربي وصلى صلاة الجمعة. بقي فترة أطول بعد خروج المصلين وقرأ القرآن. صلى ركعتين، استلقى في زاوية المسجد، فالجامع أكثر رطوبة من بيته في هذه الظهيرة الحارة، وبعدها خرج ليرى على باب المسجد عربة بائع متجول محملة بالتفاح السكري.

(٣)

كان عجوزاً، وكان في السبعين من عمره. كان يعيش وحيداً بعد أن كبر أولاده الخمسة وفارقوه منتشرين في أربع رياح الأرض، سامي في الجزائر يعمل مدرساً. عصام موظف ويعيش مع أسرته في اللاذقية. نذير يدرس منذ عامين في المملكة السعودية وقد لا يأتي هو وعائلته هذا الصيف، أما أسيمة فقد تزوجت وذهبت مع زوجها إلى أمريكا، وأمل الصغرى المحببة، ذهبت في منحة دراسية إلى الاتحاد السوفييتي، ليبقى هو وحيداً في البيت الكبير بعد أن توفيت زوجته الصيف الماضي وتركته يداري وحدته بالتجول في هذا السوق المزدحم بالبشر والمعروضات، أو بالجلوس في المسجد طوال فترة الضحى، أو القيلولة، وأبعد مشوار يكون إلى حديقة السبكي.

(٤)

على باب المسجد رأى عربة التفاح السكري للمرة الأولى في هذا الموسم، فتذكر أن زوجته كانت تحب التفاح السكري، وتذكر أنه كان يشتري لها كل يوم تفاحاً سكرياً في مثل هذه الأيام. وتذكر أنها كانت تمازحه بعد أن تزوجها قائلة:

"ليس لي عليك إلا ثلاثة شروط، أن أنام مبكرة، وأن تشتري لي كل يوم خبزاً طازجاً، وأن تشتري لي التفاح السكري كل يوم طوال موسمه".

تذكر أنه قضى خمسين عاماً مع عائشة ينفذ شروطها اللطيفة، تذكر.. وتذكر.. وتذكر...

(٥)

... تذكر واشترى كيلو غراماً من التفاح السكري، ثم مشى بين الناس حاملاً تفاحه السكري. وصل إلى البيت. غسل التفاح ووضعه في الصحن الكبير الذي اعتادت عائشة أن تضع فيه التفاح السكري. مد يده والتقط حبة تفاح. كان في الماضي يناول عائشة الحبة الأولى ضاحكاً وهو يقول:

"ها أنا أنفذ شروطك".

نظر قبالته فرأى مقعد عائشة خالياً. أعاد التفاحة السكرية إلى الصحن وقد أحس انقباضاً في قلبه. قام ومشى في البيت. عاد وقعد حيث كان قاعداً ثم قام ووقف برهة، بعدها دار في البيت على غير هدى. عاد إلى حيث كان قاعداً أعاد التفاح إلى الكيس، تناول كيس التفاح السكري ودار في البيت كأنه يبحث عن مكان يضعه فيه، ثم خرج من البيت حاملاً كيس التفاح السكري.

(٦)

خرج من البيت ومشى باتجاه المقبرة. وصل قبر عائشة. تطلع حواليه فرأى بضعة أولاد يلعبون بين القبور وعليها. وضع

كيس التفاح السكري على قبر عائشة. قعد على القبر المقـــابل ثم قام وقعد على القبر وبجانبه كيس التفاح السكري. تناول حبـــــة تفاح. أعاد التفاحة السكرية إلى الكيس بعد أن أجهش بالبكـــاء. تلفت حواليه فرأى الأولاد ما يزالون يلعبون بين القبور وعليها.

(٧)

كان الأولاد ما يزالون يلعبون فوق القبور وحواليها. قـلم ثم مشى في المقبرة، وقرب الباب الخارجي انتبه إلى ولد يتعلق بثيابـــه وكأنه يقول:

ــ عمو.. عمو.. نسيت تفاحاتك!!

دون أن يلتفت، والدمعة ما تزال تترقرق في عينيــــه، تمتـــم وكأنه يحدث نفسه.

ــ هو لكم يا أولاد... هو لكم.. التفاح لكم يـــا أولاد.. التفاح..

١٩٨٦

أنها قصيدة أو فعل ماض مستمر

مرة أخرى
وكما حدث في كل يوم
مرة أخرى، خسرنا ما كنا قد خسرناه
مرة أخرى خسرنا
خسرنا وردة جميلة
وردة جميلة أخرى
مرة أخرى، وكما حدث
مرة أخرى يحدث
حدث أن خسرنا
خسرنا وردة جميلة
وردة جميلة أخرى
مرة أخرى، شمس ضاعت
شمس لمعت
لمعت ثم غابت
غابت شمس جميلة أخرى
مرة أخرى!!
مرة أخرى وكما حدث أمس
مرة أخرى وكما حدث اليوم

مرة أخرى وكما حدث غدا
مرة أخرى، وردة أخرى
وشمس جميلة أخرى
مرة أخرى!!
مرة أخرى
مرة أخرى
مرة..
مرة
أخرى
وأخرى
مرة جميلة أخرى
وردة أليمة أخرى

بعض من بعض الشهادات

صورة

كان النهار صحواً، نظر الناس إلى السماء فـــرأوا دبابـــات وعساكر وبوارج ومدافع.

كانت الحقول جميلة فرأى فيها الناس دبابـــات وعســـاكر وصواريخ وطائرات.

في البيوت، في الحقائب، في المعلبات، في النوم، في اليقظـــة، في الجبال، في البحر، في السهوب، ليـــس هنـــاك إلا العســـاكر والدبابات والبنادق، وكلها بيد رجل واحد يشـــهرها في وجـــه الناس، فأين يذهب الناس يا ترى؟!

لا مكان لازمان لنذهب إليـــه، فالطـــائرات والدبابـــات والصواريخ والرشاشات تطأ الناس وتحصدهم، مثل حصادة قمح، بينما في الجو تحلق هائمة روح العقيد الشيشكلي، وكأنها تســـخر من الذين انقلبوا عليه.

حديث شفوي

.... وفي عام ١٩٠٥، وقت ما فشلت الثورة في روسيا القيصرية كتر في روسيا المرتدين واليائسين والضائعين ونحن في بلادنا نعيش أوضاع متشابهة ومن هون علينا أنو ما نتفاجئ أو نغتم من كترة المتساقطين والمتخاذلين واليائسين والمرتدين وأصحاب الأحلام اللي هي مانا واقعية أو أصحاب النظارات السوداء وغير المتفائلة وغير الواثقة بحركة التاريخ إلى الأمام هدول أفراد قليلين برجوازيين صغار فقدوا القدرة على الرؤية الصحيحة وما إلهم علاقة بالواقع مثل طبقتهم المنحطة لما ما مشت الأمور مثل ما كانوا يشتهوا انقلبوا مئة وثمانين درجة وهادا إن دل على شيء فإنما يدل على فشل البرجوازية الصغيرة ونحن يمكننا أن نقرر جازمين أنو الأزمة هي أزمتهن وهم في مرحلة الانحلال وما هي أزمتنا نحن قوى المستقبل نحن القوى الصاعدة في التاريخ يجوز تتأخر مسيرة الثورة يوم ويومين وهون وهون بس المهم هو المجموع العام للحركة الثورية العالمية وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي ودول المنظومة الاشتراكية تتعزز بحزم واللي وصلت مرحلة الاشتراكية المتطورة مثل ما ورد في مقررات المؤتمرين الخامس والسادس والعشرين والثورة في كوبا انتصرت وكمان في أنغولا وأفغانستان ونيكاراغوا فالإمبريالية إذن بتعيش أزمتها الأخيرة وهي في آخر أيامها ونحن منعيش عصر انتقال البشرية من الرأسمالية إلى الاشتراكية ومثل ما بيقول ناظم حكمت عصري لا

يخيفني أني من القرن العشرين وأنا فخور بذلك إذن يجب أنو مـــا نسأم أو نتشاءم ونهرب من عصرنا وبالعكس يجـــب أن نكـــون سعداء ونحن في منطقتنا العربية نحن اللي بدنا نوجـــه الرصاصـــة الأخيرة للإمبريالية وهادا هوى سبب شراسة الإمبرياليـــة ضـــد حركة التحرر الوطني العربية أعرف أنو هدا الكلام بالطريقة مـــا بيعجبك يا رفيق يوسف لكن هادي هي الحقيقة وعلى الإنســـان أنو يمتلك نظرة كونية شاملة للتاريخ ويمتلك بوصلة وبوصلتنا هي الأمين العام وإلا ضاع أو ارتد مثل صاحبك هاني اللي حكيت لي عنو وفي كل الأحوال نحن موشغلتنا أنو نبشر بالبكي وأنو نعلمـو للناس نحن مهمتنا صنع المستقبل والفرح مقابل سلبية البرجوازيين الصغار وميوعتن علينا الاعتصام والتمسك بحبل المادية التاريخيـــة والإيمان بحتمية التاريخ والاشتراكية فكـــل البشـــرية ســـتأتي إلى الاشتراكية والحقيقة أنو.. وأنو.. وأنو...

بعض من حديث سعد الشفوي مع يوسف

كمال

.... أنا نفسي لا أعرف ما الذي حدث معـــي وكيـــف، أحياناً أكون غير راض عن نفسي، فأقول: هكذا هي الدنيا، وأنـا أعيش كغيري.. جربت حظي في السياسة، وكنت مؤمناً بالحزب الذي انتسبت إليه، لكنني أدركت بعد أن سجنني وعذبني هـــذا الحزب أنني لن أصلح هذه البلاد، وأن من الأفضل أن أعتني ببيتي، فبيتي هو وطني، أخي يوسف يتفلسف ويقول: الوطن هو البيـت، لكنه لو سجن مثلي لأدرك أن هذا الوطن هو السجن، وفي النهاية ماذا أعمل؟.. صار لي عائلة كبيرة، أولاد يجب أن أطعمهم، ولـن تطعمهم الكتب والأحاديث السياســية والمواقــف البطوليــة أو الأخلاقية، جاءوا عندما كنت في السجن، وعندمـــا خرجــت اضطررت للتوسط وتقبيل الأيدي والأرجل حــتى أعــادوني إلى التعليم في القرية، وبعدها قلت لنفسي: لماذا لا أفتتح مكتبة صغيرة لبيع القرطاسية قرب المدرسة علها تساعدني، وفتحت المكتبة عـام ١٩٧٦، لكنها لم تربح كثيراً، فأضفت بعض البضائع، ثم اتفقــت مع تاجر في طرطوس على أن يضع عندي بضاعة بالأمانة، وأخيراً قال لي عزيز بعد أن أصبح قائد كتيبة في لبنان عام ١٩٨٣: مـــا رأيك أن أحضر لك بعض الأغراض من لبنان، أوصلـــها لـــك،

كلهم يهربون، فلماذا لا نستفيد نحن؟ وفي كل الأحوال ليس الاقتصاد الوطني قائماً على دكانتي الصغيرة.. لا أعرف.. أحياناً أقول: سأترك هذه الدكان،.. سأترك التعليم وأسوح في هذه الدنيا، أترك القرية والأولاد وليلى.. أهرب وأعيش على هواي.. لكنني كبرت على هذه التصرفات.. ثم من يبقى للأولاد؟!.. أنا أنجبتهم وأنا المسؤول عنهم.. هذا مصيري.. محمد الذي أدخلته أنا الحزب صار أمين شعبة، وحسين أمين الشبيبة.. وأخي يوسف يتفلسف علي ويتعالى ويبيض أخلاقاً وثوريات.. الأفضل له أن يعقل ويتزوج، أن يعود ويعيش بيننا في طرطوس أو القيسية.. موهوم.. ضائع في دمشق ويظن نفسه سيصلح هذه الدنيا التي خلقها الله معطوبة، لو ذاق السجن والعذاب الذي ذقته لكان خفف علي الأقل من أوهامه.. آه من هذه الدنيا، ماذا يفعل الإنسان فيها.. لكن التجارة مربحة.. والنقود في اليد تغري وتفرح.. لا أجد وقتاً للحديث مع الأولاد.. وليلى.. غريب.. كيف تعلمت ليلى التجارة بهذه السرعة.. سبقتني.. إذا كنت أربح كل هذا، فكم يربح عزيز؟.. يا يوسف اسمع مني، تعال واشتغل معي في هذا الدكان.. فوالله هو أفضل لك، أنا واثق أنك ستعود إلينا، بعد أن تتعب أو تسجن أو تخفق مثلي، بعد أن تنكشف لك أوهامك. ومثاليتك.

لست متنكراً لأفكاري ومبادئي.. لكني لست مضطراً لان أكون أنا الضحية، الأفكار جميلة، لكن الواقع قاس، كلهم تغيروا.. فلماذا تريدون مني أن أقف في وجه هذا السيل.. كلهم

كذابون ومنافقون يسعون وراء المناصب والمغانم، حتى عزيز يربح مني.. وحتى يوسف الذي يعيرني بالتجارة وبترك الماضي يـــأخذ مني نقوداً عندما يحتاج.. مني بـــدل أن ســـاعدني مـــاذا أفعـــل ويوسف...[*]

---

[*] ملاحظة للناشر: نهاية صفحة، وليس هناك تتمة.

ماري

.. ولا أحس نفسي متهمة حتى أدافع عنها نفسي، فعلت وأفعل ما أؤمن به وما يستهويني، لن نعيش هذا العمر إلا مرة واحدة، فلماذا نربك أنفسنا؟! يلومونني أحياناً لأني لم أتزوج من أحببت وتزوجت رجلاً لم أحبه، لكني لست نادمة، فيوسف كان يحيرني بتردده وارتباكه الدائم، لم يكن يعرف ما يريد، وأظنه لم يعرف حتى الآن، وأنا متأكدة أنه لن يعرف أبد الدهر، إنه هكذا، أما أن يقبله الإنسان وأما أن يرفضه، في البداية قبلته، وقلت ربما يصبح كاتباً، فقد كتب أحب قصصه التي كان يطلعني عليها وأنا أعرفه منذ زمن بعيد، منذ كان والدي يعمل في طرطوس مديراً للبنك، لكنه لم يستطع مرة واحدة أن يحدد ما يريد من مستقبلنا ومن علاقتي به، كان يتكلم كثيراً دون أن أفهم منه شيئاً، وقد أحسست أكثر من مرة أنه يريدني صدى لأفكاره، وأنا لا أريد أن أكون إلا نفسي. كنت أشعر تحت القشرة الخارجية لخجله بذوراً مغطاة لشخصية متسلطة. لم يكن هاملتياً في تردده إنه متسلط، وكأي متسلط سيبقى وحيداً، وأنا لا أحب المتسلطين، قد أكون تأخرت في اكتشاف صفته هذه، ولكني اكتشفتها على أية حال، أما هاني فقد كانت مزاجيته وتزمته السلوكي والأخلاقي أكثر غرابة.. أحببت في البداية صمته وجمال وجهه، ثم أعجبت بلطفه وثقافته، ثم عرفت أن كل هذه المظاهر قشور، فوراء تزمته الأخلاقي ميل قوي للتهتك والفجور إذا ما انكشف

القناع، ووراء لطفه الزائد ميل قوي للإيذاء وتحقير الآخرين، ووراء ثقافته العريضة عادات تقليدية، بل أن ثقافته لم تتكشف في النهاية عن أكثر من زمن ومن ورق مستهلكين، فثقافته لم تجعله يغير شيئاً من نفسه، بل وعادت به قروناً وقروناً إلى الوراء. رفض أن يعرفني على أهله كما طلبت منه، ورفض أن يتعرف على أهلي كما طلبت منه أيضاً، ثم تحدث معي في الدين ووجوب أن أغير ديني حتى نتزوج، فأهله لا يوافقون إلا هكذا كما قال، ولما قلت له أنني غير متدنية حتى أغير ديني، قال بأن الأمر شكلي ومراعاة للأهل والبيئة والظروف، لكنني لم أقتنع هذا الأمر الشكلي فرد علي بأنني متمسكة بديني ومتعصبة.. غريبا.. وفي الشهر الأخير من علاقتنا صار يتهرب من لقائي، فقلت في نفسي: ليذهب إلى الشيطان، ولأذهب أنا إلى بريطانيا.

تزوجت ولي طفلة، قد يكون زوجي تقليدياً، وقد يكون زواجي كله هكذا، لكني لست متضايقة، لي طفلتان وأنا سعيدة بهما، أعرف أن يوسف ما يزال مستمراً في ثرثراته عني واتهامي لأنني رضيت بتوسط أبي للذهاب إلى بريطانيا، ما الغرابة؟! هكذا تجري كل الأمور هذه الأيام، ولست استثناء، ولن أكون.. فيما مضى كنت أخاف مثل هذا الكلام، كنت "أتولدن" وأرفض أهلي. لكن ما الحاجة لذلك وهم لا يضايقونني بل يساعدونني، إنهم طيبون وأنا متفاهمة معهم، يساعدونني في رعاية مها وثناء.. يا إلهي.. ماذا كان سيحصل لي لو تزوجت شخصاً مثل هاني.. كنت سأجن حتماً.. ما عدت أعرف من أخباره سوى أنه ذهب

للتعليم في السعودية بعد انتهاء الدراسة لا جامعية. أرى يوسف أحياناً ما يزال كما كان وكما سيبقى، حيران ومرتبكاً لا أعرف ماذا حصل لمحاولاته القصصية، لم ينشر شيئاً يبدو لي أنه لن يصبح كاتباً أحياناً أشعر أنني أفهمه وأنه قريب مني، أنه يزورنا أحياناً، وقد أصبح صديقاً لزوجي، لكن شيئاً داخلياً ما يجعلني حذرة منه. لقد أردت من حياتي أن تكون سعيدة هادئة، وها أنا ذا أعيش الحياة التي أردتها لنفسي. المهم أنني استطعت التخلص من ثرثرات وتعقيدات يوسف وهاني. لست آسفة على شيء ولست..، ....،....

هاني

بسم الله الرحمن الرحيم

"و لم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل بنور قدمه الله تعالى في الصور، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمه الله تعالى ـ الواسعة".

الإمام الغزالي

الحمد لله الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، الحمد لله حمد شاكر على نعمة وآلائه، معترف بفضله، مقر بعدله، الحمد لله الذي هداني للإيمان: وما كنت لاهتدي لولا أن هداني الله، وبعد:

كانت مرحلة جهالة وغرور فيها ذهبت مع الشيطان كل مذهب، أكلت الثمار الفاسدة، واجترحت الخطايا المنكرة؛ عرفت السوء وعاشرت قرناءه، "عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم" إلى أن هداني الله، وأدركتني العناية، فقذف الله من نوره في صدري نورا، أنا الذي كان يتمرغ في الخطايا ويعيش في الدنيا، ولي في الإمام الغزالي أسوة حسنة؛ وهاأنذا اكتب شيئاً من قصتي فلعلها تفيد المؤمنين، وتكون تذكرة للضالين.

ولدت عام ألف وثلاثمائة وخمسة وستين للهجرة النبوية في دمشق الشام، وتربيت في حي القيمرية قرب الجامع الأموي، وهناك كانت طفولتي في رحاب هذا المسجد الجامع، من شعشعات أنواره، عرفت النور، وما تزال تعيش في حنايا نفسي

ليالي رمضان، وليالي كان يأخذني والدي معه إلى صلاة التراويح، ما تزال ملء سمعي وقلبي أصوات المرتلين وحلقات الذكر، لكن شاء الله أن تمر فترة أيام المراهقة والجهالة، أتعرف فيها على زميل لي وأن أذهب معه إلى دارة الخبالة، فسحرتني وأخرجتني من هدوء عالمي، وصرت أذهب إليها كل يوم، ثم تعرفت في المدرسة على تلميذ أخر صار يعطيني وريقات تسمى "منشورات" فانسقت معه، وبعدها أخذوني في رحلة إلى الغوطة، ومن أين لغز جاهل مثلي أن يعرف ألاعيبهم، وبعدها صاروا يعطونني كتباً، ويأخذونني معهم في رحلات وأمسيات أدبية وسياسية ويتحدثون عن تغيير سنن المجتمع والحياة، فآمنت بأقوالهم، وازددت من قراءة الكتب وفيها بعد أن تعرفت إلى مروان وعصام، وكانا يملكان خزانتين كبيرتين تحتويان كل أنواع الكتب، ولما كنت شغوفاً بالقراءة فقد قرأت كل كتاب وقع في يدي، والآن أعرف كم أضعت من الوقت في هذه الكتب، إلى أن ذهبت إلى الجامعة، قسم اللغة الإنكليزية، اخترت الإنكليزية لأقرأ كتباً أكثر، بلغة أخرى، وهناك تعرفت على طلاب مختلفين عن بيئتي، فنسقت معهم، وكان من بينهم طالب اسمه يوسف يصغرني بثلاث سنوات، كان شغوفاً مثلي بالقراءة وله في فن كتابة القصة محاولات كما تعرفت على فتاة أسمها ماري، وكدت أتزوجها لولا لطف الله وعنايته.

بعد الجامعة ذهبت وعلمت في المملكة العربية السعودية، كانت مناسبة هيأها لي الله تعالى لأخرج من السجن الذي

وضعت نفسي فيه، ولأعيد التفكير في حالي ومآلي، فانكببت على قراءة القرآن العظيم والتدبر فيه، قرأت القرآن وأعدت قراءته، إلى أن فتح الله علي ذات ليلة، فوجدت في القرآن غنى عن كل الكتب التي كدت أطالعها "كتاب أحكمت آياته وفصلت تفصيلاً".

لا أريد أن أرى أحداً من الذين عرفتهم سابقاً وأنا أعيش في حال رضية مع زوجتي وأطفالي، وأراقب الفساد الذي تعيش فيه البلاد والعباد وأغتم تكسب الحكام سبل الرشاد "وسيرى الظالمون أي منقلب ينقلبون".

لا أريد تذكر الماضي أكثر، وحسبي الله ونعم الوكيل:

"لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا أصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به وأعف عنا وأغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

حرر في الخامس والعشرين من شهر محرم الحرام من عام ألف وأربعمائة وخمسة للهجرة النبوية الشريفة في دمشق الشام، حماها الله.صورة

كان النهار صحواً، نظر الناس إلى السماء فرأوا دبابات وعساكر وبوارج ومدافع.

كانت الحقول جميلة فرأى فيها الناس دبابات وعساكر وصواريخ وطائرات.

في البيوت، في الحقائب، في المعلبات، في النوم، في اليقظة، في الجبال، في البحر، في السهوب، ليس هناك إلا العساكر والدبابات والبنادق، وكلها بيد رجل واحد يشهرها في وجه الناس، فأين يذهب الناس يا ترى؟!

لا مكان لازمان لنذهب إليه، فالطائرات والدبابات والصواريخ والرشاشات تطأ الناس وتحصدهم، وثم مثل حصادة قمح، بينما في الجو تحلق هائمة روح العقيد الشيشكلي، أنها تسخر من الذين انقلبوا عليه.

٢ـ صفحات من مذكرات الكاتب وأوراقه

أعدت أمس قراءة الفصل الـــذي كتبتـــه عـــن يوســـف، فأحسست بتفاهة هذه الشخصية، وهذا بالضبط ما أردته، ومـــا أتمنى أن يحسه القارئ، فهذه الشخصية الفارغة والتي تظن نفســها عميقة، إنما تريد أن توقف سير العالم ببعض عواطـــف وبعــض مواقف ذات إهاب أخلاقي عصابي، لكن تصرفاتها تفضحها، لقد انسحبت هذه الشخصية من العالم الخارجي مترفعة عنه، وهـــي تظن نفسها تعمل لتغييره، أنها مفارقة مضحكة، ساخرة، فـــهل نجحت يا ترى في إيصال ما أردت؟

أعرف أنه لا يحق للروائي أن يتدخل في مصائر شــخصياته، أو أن يكون حكماً عليها، لكن مشكلة مصير، أو نهاية شــخصية يوسف ما تزال تحيرني، هل أترك مصيره مفتوحاً أم أنهيه؟

وكيف أنهيه؟ هل أودعه السجن، أم أجعله يتغير ويصبـــح مهرباً مثل عزيز وكمال؟ واقع الأمر أن يوسف شخصية منتهيــة، ولهذا يجب أن يموت فكيف أقتل يوسف؟

* * *

يوسف شخصية منتهية، انتهت نفسها بسلوكها، آه، أنهــت نفسها!! وجدت الحل!! يوسف شخصية تنـــهي نفســها، أي تنتحر، سأجعل يوسف ينتحر، لكن سأرسم طريق يوســـف إلى الانتحار؟ يجب أن أفكر في ذلك.

* * *

ثمة مسألة أخرى وهي، أستطيع أن أوضح أكثر عجز وتفاهة شخصية يوسف.. كيف أرسم شخصية قد لا يحترمها المرء إذا صادفها في الحياة الواقعية لكنها مقنعة في الأدب؟

في مثل هذه الأحوال، غالباً ما يلجأ الروائي إلى إطلاق الشخصية في الحياة وتركها تتصرف، ومن خلال تصرفاتها تكشف الشخصية نفسها، لكن شخصية يوسف انعزالية في جوهرها، ولهذا فليس من المفيد كثيراً إطلاقها في الحياة، ثم جعلها تنتحر، ربما يكون الحل الأفضل هو اللجوء إلى تقنية تقول عزلة يوسف، تقنية تطابق بين بناء شخصية يوسف كما أردها، وبين مضمونها الانعزالي لتعبر عن نفسها؟

* * *

أعتقد أن الشخصيات الانعزالية غالباً ما تلجأ في مثل هذه الأحوال إلى الكتابة، كتابة المذكرات أو الانغماس في المنولوجات الداخلية، لكن يوسف كان في مراهقته يحاول كتابة القصة القصيرة، وسيكون ملائماً لشخصيته أن أجعله يستمر في كتابة القصة القصيرة، فالكتابة هي فعل المنعزلين، هي مشاركتهم الاجتماعية.

لكن ماذا سيكتب يوسف وعمن؟ اليوم قرأت قصة لزميل لي في الجامعة اسمه مروان عبد اللطيف كان شاباً يدهشنا بحيويته، لكن قصته كانت عن عجوز، لا أعرف ماذا حدث لهذا الزميل. فيما بعد و لم أره من يومها و لم أسمع عنه شيئاً غلا ما اقرأه من

قصصه في الصحف وكلها عن عجائز، فهل نستطيع أن نستدل على روح هذا الكاتب الداخلية من خلال قصصه.؟

* * *

وجدتها سأجعل يوسف يكتب قصصاً عن عجائز، فعجز هؤلاء الشيخ سيكون معادلاً فنياً لعجز يوسف وكهولته العقلية والنفسية.

اعتقد أنني عن طريق شخصية يوسف المتهافتة أستطيع أن أقول ما أريد، وقصصه ـ قصص يوسف ـ ستساعدني أكثر، فالشخصية العاجزة هي الشخصية السائدة في هذه المرحلة، هي المعادل الفني للشخصية الاجتماعية الآن، وربما في كل زمان ومكان.

ماذا عن رأيي أنا؟: هل يحق للمؤلف أن يقول رأيه؟: لا أميل كثيراً لتدخل المؤلف في مشاغل وأمور شخصياته، ولكن المؤلف إنسان في نهاية المطاف، ويحق له أن يقول رأيه، مثله مثل أي شخصية من شخصيات روايته، ولو كان لي أن أعلن صوتي بين أصوات شخصيات إلى جانب الشيشكلي ويوسف العقيد بائع الكتب وهاني وماري.. وكمال وعزيز و.. لو كان لي أن أعلن صوتي معهم لكان صوتي معبراً عنه في المقطع المعنون بـ "صورة" فهذه الصورة هي صوتي الخاص.. ولو كان لي أن أختار لاخترت الصمت بعد رؤية هذه الصورة، لكن من هو الذي يتكلم، ومن هو الذي يكتب إذن هذه الرواية؟!

يبدو لي أن الذي يتكلم ويكتب وفي هو شـــخص آخـــر غيري، شخص يسكن في داخلي، وليس من العـــدل أن أمنـــع شخصاً آخر من الكلام، حتى ولو كنت أحب الصمت؛ حتى ولو كان هذا الشخص يسكنني، إنه يتكلم وأنا أصمت، أو بـالأحرى يحق له الكلام مثلما يحق لي الصمت ونحن متفقان إذ لابد لأحـــد أن يتكلم، ولابد آخر أن يصمت وقد اتفقنا مرة أن كلامه يشـبه الصمت لأنه كالصمت لا يفيد شيئاً، وأن صوتي يشبه كلامــــه، لأنه ـــ أيضاً ـــ لا يفيد شيئاً أو أحداً.

ترى هل أستطيع يوماً ما أن أكتب روايـــة كلـــها أوهـــام وأكاذيب، كلها حقائق، رواية كالحياة تماماً، فالحقيقة أن هـــذه الحياة تشبه...*

---

* ملاحظة للناشر: هنا تنتهي صفحة ولانجد تكملة.. ربما تكون قطعة من مذكرات صاحب المخطوط تسلل خطأ إلى أوراق مشروعه الروائي، لكن الروائي الاستاذ رشيد سليمان أشار علينا بنشرها مع المشروع.

ملاحظات

١ ـــ يجب التركيز أكثر على العلاقة بـــين الشـــخصيات الحقيقية المأخوذة من التاريخ، من الواقع، الشيشكلي مثلاً، وبـــين الشخصيات المخيلة، يوسف.. هاني.. الخ.

٢ ـــ يجب التأكيد على الترابط والتداخـــل بـــين الواقـــع والخيال، بين الحقيقة والوهم، بين الأكاذيب وما يشـــبهها مـــن أضاليل يسميها الناس وقائع ومعارف.

٣ ـــ يجب أن يكون جوهر تقنية هذه الرواية هو الفوضـــى والكذب، فالأزمان متداخلة، والفصول غير مرتبة، والشخصيات وجدت مع أنها غير موجودة، وغير موجودة مع أنها عاشـــت... وهكذا..

٤ ـــ يجب أن تبقى روح العقيـــد الشيشـــكلي، حـــاضرة وهائمة تطير عبر الرواية من أولها إلى آخرها، فكيف أســـتطيع أن أحل هذه المشكلة تقنياً؟

٥ ـــ يجب أن أدرب نفسي على كيفية قضاء ما تبقـــى لي من عمر في عيش هذه الرواية، ولهذا علي ألا أنقطع عن التفكـــير والكتابة، حتى ولو لم أنشر شيئاً حتى الآن، وعلي أن...[*]

---

[*] ملاحظة للناشر: هنا تنتهي صفحة و لم نجد تكملة .

فصول يجب أن تكتب

١ ــ فصل عن آلية تحول عزيز من مناضل إلى مهرب

٢ ــ فصول عن آلية تحول كمال من أخلاقي إلى واقعي

٣ ــ فصول عن آلية تحول هاني إلى التدين

٤ ــ شهادة تتكلم فيها ليلى عن نفسها

٥ ــ فصل يوضح أكثر تهافت شخصية يوسف وطريقه إلى الانتحار

٦ ــ فصلان: الأول ضاحك والثاني بديء جداً

٧ ــ يجب أن يكون في الرواية شعر ونثر، دراسات، مقالات، تحقيقات صحفية، أكاذيب، حقائق إحصاءات سمو، انحلال، بغايا، قديسات، شيوخ، فلاحون أطفال، لصوص، معلمون، موظفون، عمال، ضباط.. الخ.

يوميات

١٧ /٨

ترى هل من الضروري أن أكتب كل هذه الفصول التي لم أكتبها بعد، أو أن أكتب بعضها على الأقل!؟.. هل من الضروري مثلاً أن أكتب فصلاً أو فصولاً عن آلية تحول عزيز وكمال من مناضلين إلى مهربين، أو فصلاً أوضح فيه شخصية ليلى.؟ وهل عزيز وكمال مثلاً إلا مجرد شخصين من بين مئات الناس الذين تحولوا من مناضلين ـ ومن كل الأحزاب ـ إلى مهربين ومهرجين؟؟ ألا يعرف كل واحد من الناس نموذجاً أو نماذج من هؤلاء الأشخاص؟ فلماذا لا أترك للقارئ حرية أن يتخيل الأشخاص الذين يعرفهم وأن يضعهم في مواضعهم من هذه الرواية؟ لماذا لا أترك للقارئ حرية أن يكمل هذه الرواية بما ومن يعرف؟

٨/٢٠

ترى هل سأستطيع ذات يوم كتابة رواية أقترح من خلال بنائها على القارئ كتابة أو تصور فصول لا أكتبها، ولها مكان، بل كان يجب أن تكتب في الرواية؟؟ أليس هذا حافزاً لمخيلة القارئ وملكاته وقدراته الإبداعية؟ أليس هذا إشراكاً للقارئ في بناء الرواية، في عيشها كما يعيش هذه الحياة التي هي رواية.

٩/٧

مهما كان الروائي قوي الخيال، ومهما كانت درجة إتقانه اللغوي والبنائي، بل ومهما كانت عميقة معرفته للواقع، يبقى محكوماً بخبرته الحياتية ـ الشخصية، يبقى مقيداً بشخصيته هو، كإنسان، وككائن اجتماعي في زمان ومكان محددين، أما مشاركة القارئ فأنها تمتد بالرواية إلى مجال وآفاق أرحب، بل أنها تعيد خلق الرواية من جديد لدى كل قارئ، وربما لدى كل قراءة.

١٠/١٥

أتمنى لو أستطيع ذات يوم أن أرسم مخططاً لرواية، ثم أترك القارئ، أي قارئ، كل قارئ، يملأ هذا المخطط، يكسوه بخبرته ومعرفته، بشخصياته ولغته وخيالاته، ليس ما أحلم به رواية "على العظم" بل مخطط هندسي، لا.. لا.. وليس مخططاً هندسياً بل مجرد مساحة، فسحة، وأقول للقارئ تخيل، ابن على هذه الفسحة حياة رواية كما وما يروق لك.

١١/٢

هل من الضروري أن يكتب كل إنسان رواية، أليست طريقة عيش كل شخص لهذه الحياة وفيها نوعاً من كتابة الرواية، نوعاً من قراءتها؟...

١٢/٣١

«ابد أن تشرق طروادة أخرى وتغرب لابد من جبل أخر بطعـــم الغراب لابد من قيدوم سفينة ملونة أخرى يشق عباب البحر إلى هـــدف باهر، لكنه سراب».

وليم بتلر ييتس

صورة

كان النهار صحواً، نظر الناس إلى السماء فـــرأوا دبابـــات وعساكر وبوارج ومدافع.

كانت الحقول جميلة فرأى فيها الناس دبابـــات وعســـاكر وصواريخ وطائرات.

في البيوت، في الحقائب، في المعلبات، في النوم، في اليقظـــة، في الجبال، في البحر، في السهوب، ليـــس هنـــاك إلا العســـاكر والدبابات والبنادق، وكلها بيد رجل واحد يشـــهرها في وجـــه الناس، فأين يذهب الناس يا ترى؟!

لا مكان لازمان لنذهب إليـــه، فالطـــائرات والدبابـــات والصواريخ والرشاشات تطأ الناس وتحصدهم، وثم مثل حصـــادة قمح، بينما في الجو تحلق هائمة روح العقيد الشيشـــكلي، أنهـــا تسخر من الذين انقلبوا عليه.

توضيح للناشر

في يوم ١٦ نيسان ١٩٨٦ فجرت خمس سيارات لنقل الركاب على الطريق بين دمشق والساحل السوري، وفي إحدى السيارات، وبين أشلاء الضحايا وبقايا متاعهم وجدت حقيبة من نوع سام سونايت وفيها منشفة وأدوات حلاقة وقميص وبنطلون (جنز) وألبسة داخلية ومغلف يحتوي كمية من الأوراق كتب على الصفحة الأولى منها عبارة واحدة هي "مشروع رواية".

يبدو أن صاحب الحقيبة كان راكباً عادياً، وليس كاتباً معروفاً، فالصحف لم تذكر اسم كاتب في عداد ضحايا الحادث، والكتاب أنفسهم لا يتذكرون اسم زميل لهم قتل في ذاك الوقت، وحتى الذين يتابعون الصحف اليومية لا يذكرون أن اسماً ما غاب عنها بعد الحادث، فنحن لا نملك إذن أي إشارة لصاحب الحقيبة، أو المخطوط، ولا نعرف أي إشارة تدل على العلاقة بين المخطوط وصاحبه، فهل كان صاحب المخطوط يحاول كتابة رواية، أو سيرة ذاتية، أو محاولة في التأريخ القصصي أو القصص التاريخ؟ ذلك أن الكاتب يذكر حوادث ووقائع تاريخية، محددة ومعروفة لنا تماماً بل أن بعضنا عاش أغلبها، وهو يؤرخ بأزمان، ويذكر أشخاصاً معروفين عاشوا بيننا، جنباً إلى جنب مع أسماء

شخصيات لا أحد يعرف عنها شيئاً، فإذا كان العقيد الشيشكلي ــ مثلاً ــ معروفاً لنا، فمن هو يوسف؟!

عرضنا المخطوط على أستاذ الجامعة الدكتور عبد اللطيف حسين فقدم مشكوراً الملاحظات التالية على المخطوط:

١ ــ المخطوط هو محاولة روائية في طور التكوين لمبتدئ في هذا الفن. وهذا واضح من الورقة الأخيرة التي يسجل فيها عناوين بعض الفصول التي لم يكتبها، والتي تحتاج في رأيه لبعض الدراسات، أو الوقت.

٢ ــ حظ الخيال الروائي في هذه المحاولة ضعيف، وهذه هي نقطة الضعف الرئيسية في المخطوط، ويبدو أن صاحب المخطوط شديد الانغماس في الواقع إلى درجة أفقرت خياله، أو كبلته على أحسن تقدير.

٣ ــ على الرغم من أن المخطوط مكتوب خلال فترة تاريخية طويلة، فإنه يدل على ضعف النفس الروائي لصاحبه أولاً، وعدم تمكنه من الحبكة الروائية ثانياً.

٤ ــ صاحب المخطوط ليس متمكناً من التقنية الروائية، فالزمن الروائي لديه لا يسير إلى غاية، والشخصيات ليست مبنية بشكل نموذجي، وتحولاتها غير مسوغة، فمثلاً كيف تحول هاني من يساري إلى متدين؟. نحن لا نعرف آلية هذا التحول، ويبدو أن صاحب المخطوط لا يعرف، أما الروائي ــ إذا كان روائياً حقاً ــ فيجب أن يعرف، ويجب أن يقول لنا.

٥ ــ يبدو واضحاً أن صاحب المخطوط يستخدم التــاريخ الواقعي، وربما حياته الشخصية في مخطوطه، أما عن التاريخ الفعلي فله المؤرخون، وليس الروائيين، وأما عن الحياة الشخصية، فإننـــا نجد خطأ في استخدامها أثناء كتابة رواية، فالحياة الشخصية قـــد تصلح لان تكون ملحة وطرفة، لكنها ليست صالحة لتكون رواية هنا تفيد ملاحظتنا بأن صاحب المخطـــوط يفتقـــر إلى الخيـــال الروائي، ونضيف أنه ربما كان لا يحسن التفريق بين الواقع والخيال فالرواية خيال، الفن خيال والواقع واقع، وهـــو مجـــال اهتمـــام المؤرخين والصحفيين، فأين الثرى من الثريا..؟ ذاك علـــى الأرض وتلك في السماء.

٦ ــ لا أعرف لماذا يصر صاحب المخطوط علـــى إيـــراد الوقائع التاريخية، ثم يمزجها بنتف من حياة شخصية الروائيـــة ــ يوسف ــ قد تكون نتفا من حياته الخاصة ــ ثم يلجأ إلى الخيـــال أحياناً أخرى، هذا بصراحة خلط وتخريف.

٧ ــ جملة القول أن المخطوط ضعيف من حيث هندســـة البناء الروائي، مخلخل، والشخصيات فيه مهزوزة مخلخلة، غـــير مقنعة، وأنا أنصح بعدم نشره والحقيقة أن هذا المخطوط إذا كـــان رواية، فكل ما قرأته من الروايات ــ وهو كثير ــ ليس برواية".

ثم عرضنا المخطوط على الكاتب الروائي الأســـتاذ رشـــيد سليمان وهو الأديب الذي تفخر دارنا بنشر أعماله الكاملـــة في طبعة شعبية زهيدة التكاليف، فأبدى شيئاً من الإعجاب المشـــوب بالحذر تجاه المخطوط، وقال لنا بعـــض الملاحظـــات الشـــفوية

وخلاصتها أن هناك ملامح رواية واعدة، ومن المؤسف أن يكون كاتبها قد توفي ـــ إن كان قد توفي حقاً ولستم تخدعونني كما فعل أحد النقاد مرة ـــ لكن الروائي الكبير لاحظ أن صاحب المخطوط ميال للصرعات الأدبية فيما يبدو ميال للشكلانية على الرغم من أن مواد مشروعه الروائي تبدو شديدة الالتصاق بالواقع، فكيف ـــ يتساءل الروائي الكبير ـــ يبيح الكاتب لنفسه أن يكون شكلانياً إلى هذه الدرجة، ثم يردي أن يكون واقعياً إلى هذه الدرجة أيضاً، ذلك هو العيب الكبير في هذه الرواية كما يرى كاتبنا الكبير، ثم قدم دليلاً تقنياً ـــ كما قال ـــ على الميل إلى الشكلانية وهو مسألة تقطيع الفصول، وخلط الأزمنة، ثم جعل الشخصية الروائية تكتب قصصاً قصيرة، قال الروائي الكبير:

ربما تكون تلك حيلة فنية من المؤلف،ولكنها حيلة شكلانية على كل حال، حيلة هدفها دمج بعض القصص القصيرة في رواية، على حين أن الرواية هي رواية، والقصة القصيرة هي قصة قصيرة، ولا مجال للخلط بين الفنيين، ولهذا أقول والقول للأستاذ رشيد إما أن يكون صاحب المخطوط على علم كبير بهذين الفنين، حتى يسمح لنفسه اللعب بهما والخلط بينهما، وأما أن يكون على قدر من الجهل حتى لا يعرف كيف يفرق بين القصة القصيرة والرواية، على أن هذا لا يمنع كما لاحظ الروائي الكبير الذي عرفنا في دارنا تشجيعه للمواهب الشابة من نشر المخطوط.

بعد الأستاذ رشيد سليمان عرضنا المخطوط على قارئة عادية هي مهندسة مثقفة ولها نشاط اجتماعي وسياسي معروف،

فقالت لنا: هذه ليست رواية.. هذه خواطر.. ما هكذا تكون الرواية.. لكنها تقرأ.

بالنسبة لدارنا وكناشر فإننا لم نجرؤ في البداية على نشر المخطوط عندما أحضره لنا ضابط مجند ومثقف، كما بدا من اهتمامه بالمخطوط ومن حديثه معنا، قال لنا هذا الضابط أنه كان من المكلفين بجرد بقايا السيارات المتفجرة والتحقيق في محتويات بقايا متاع الركاب،وقد وجد هذه الحقيبة وعندما قرأ ما في المخطوط أحس أن كاتباً كان بين الضحايا، أما نحن فقد قرأنا المخطوط، ثم عرضناه على بعض الخبراء الذين نستعين بهم عند تقديم أي مخطوط لنا، ومنهم أستاذ النقد في جامعة دمشق الدكتور عبد اللطيف حسين والروائي المعروف الأستاذ رشيد سليمان وقارئة عادية لا داعي لذكر اسمها لكنها تشكل بالنسبة لنا زائراً لمزاج القارئ العادي، وهو من نتوجه إليه في منشوراتنا.

أخيراً ها نحن قد وضعنا المخطوط بين أيدي القراء الكرام ليكونوا الحكم الأخير.

دار النورس

١٩٨٧ ــ دمشق

ملحق

سيرة المؤلف باعتباره، شاء أو أبى، أخفى أم أعلن، تنكـر أم أسفر، أحد أصوات الرواية إن لم نقل هو صوتها الوحيد، علـى تعدد وتناقض أصوات الرواية في الفن، وفي العالم، ثم حقيقة مـا جرى معه. والسيرة معنونة بـ:

عن جيلي ونفسي

«ونجوت وحدي لأخبرك»

سفر أيوب

ولدت في مدينة طرطوس، وهي مدينة صغيرة على سـاحل البحر الأبيض المتوسط، عام ١٩٤٨ لأسرة مهاجرة من القرية إلى المدينة، وأب ترك المشيخة والخطابة ــ تعليم الأطفال ــ مهنـة أسرته التاريخية، وعمل في التجارة، فعدَّ يومها متمرداً. كـانت أسرة الأب دينية ــ علمية، ففيها مشائخ وشعراء ومؤلفون لهـم مؤلفات مخطوطة ومطبوعة، وقد حافظ الأب على العلاقة بالقرية (بيت وأرض) وما تزال علاقتي بالقرية موصولة، ولكن كسـائح، أو متنزه في أيام العطلات، ومن هنا بدأت قصة هذه الرواية.

درست المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية في طرطـوس، أما المرحلة الجامعية ففيها درست الأدب العربي في جامعة دمشق، وخلال هذه المراحل كنت أقرأ كثيراً، وأعمل في التجارة مـع أبي الذي كان يود أن أخذ مكانه ذات يوم، ولكنني منـذ المرحلـة

الابتدائية (ولا أعرف لماذا) حددت طريقي نحو الثقافة، أي أنني سأشتغل في عالم الكتب والأوراق الملونة، دون أن أعرف أي الأجناس الأدبية سأمارس مستقبلاً، وفي المرحلة الإعدادية كنت قد حددت طريقي خارج الدين والتجارة معاً، وربما من وضع أسرتي، ومن معرفتي لحقيقة رجال الدين والتجار، أرتبط الدين — وهو غير الإيمان — في ذهني بالتجارة، منذ زمن مبكر، فهل كان «صبي الدكان» الذي كنته يجد في الكتب والأوراق الملونة، عالماً تعويضياً عما يراه في الدكان من مآسي فقر الناس، وفي الشارع من مظاهر إذلالهم؟!

بعد أن تخرجت من جامعة دمشق أديت الخدمة العسكرية في مدينة حلب، ومن يومها عشقت هذه المدينة، مثلما عشقت مدينة دمشق، ثم عينت مدرساً للغة العربية في مدينة طرطوس، لكنني لم ألتحق بالتدريس لأنني لم أجد في نفسي الرغبة أو القدرة على ممارسة هذه المهنة، وهكذا عشت عامين متنقلاً، ومعتمداً في عيشي على الكتابة في الصحف والمجلات السورية بعد أن كنت: منذ ذهبت إلى الجيش قد قطعت علاقتي المادية بأسرتي، إلى أن تعاقدت للعمل في وزارة الثقافة السورية عام ١٩٧٨، فاستقلت نهائياً من وزارة التربية، وكنت أظن أن العمل في وزارة الثقافة هو محطة قصيرة وبعدها أسافر لأتابع دراستي، وربما عيشي، في فرنسا، وقد حاولت مرتين، ولكنني كنت أعود، مرة من منتصف الطريق، ومرة بعد فقدان الرغبة في باريس.

نشرت أول مقال عام ١٩٦٩ عن "الزمـــان والمكـــان في القصيدة الجاهلية" في « مجلة المعلم العربي » التي كان يحررها أستاذي في المرحلة الثانوية الشاعر المعروف محمـــد عمـــران، ثم واصلت النشر في « مجلة الطليعة» السورية وكان يحرر صفحاتهـــا الثقافية الناقدان بدر الدين عرودكي وخلدون الشمعة، وبعدهـــا صرت كاتباً شبه دائم في صحيفة الثورة وملحقها الثقافي، وكان يحرره محمد عمران أيضاً.

نشرت أول مجموعة قصصية بعنوان « الأزمنة الحديثة» عـــام ١٩٧٤، وأول كتاب نقدي عام ١٩٧٦ بعنوان«المغامرة المعقـدة» وأول رواية عام ١٩٨٦ بعنوان« هكذا.. كالنهر » .. والآن مـــا زلت أعمل في وزارة الثقافة، ولا أعرف إلى متى.

... وكما ترون مما تقدم، ليس في حياتي شيء هام؛ كبير أو درامي، فقد حددت، ومنذ البداية، طريقي نحو الكتب، ومشـيت في هذه الطريق، ولست نادماً أو راغباً في طريق أخرى. حتى لـــو كانت أكثر دخلاً، أو أهمّ اجتماعية، ولكن هناك حادثة، ربمـــا كانت جديرة بالذكر:

كنا مجموعة أصدقاء في المرحلة الإعدادية، نقرأ الكتـــب في طرطوس، ونحلم بالسفر إلى أمريكا للدراسة والعيش بعد المرحلـــة الثانوية، وقد اتفقنا على ذلـــك، وفي عـــام ١٩٦٧ تقدمنـــا إلى امتحان الثانوية فنجحنا، بعد أن كانت بلادنا قـــد هزمـــت في حرب ذاك العام، وعلى كل حال فقد ذهب الصديقان، وهما الآن في أمريكا، الأول طبيب نفسي، والثاني مدرس أدب أمريكي، أما

أنا فقد قررت أن أتخلى عن حلمي الأمريكي، وأن أبقى في سورية، وأن أذهب لدراسة الأدب العربي في جامعة دمشق، وفي جامعة دمشق تحول حلم العدالة الذي رافق الصبي في الدكلن إلى حلم متعين في الاشتراكية.

ربما لهذا السبب، أي لأن عام ١٩٦٧ غيَّر قراري وطريقي وهدفي في هذه الحياة، فإنني أعتبر أن ما حدث في هذا العام هو الحادث الرئيس في حياتي، أنني ببساطة، واحد من جيل الـ «٦٧» ولهذا أرجوكم ألا تؤاخذوني على شدة يأسي وانقطاع أملي.

بقيت حادثة تتعلق بهذه الرواية، بعد أن عرفتم ولاشك أنها لعبة، ففي ١٦ نيسان ١٩٨٦، كنت ذاهباً إلى طرطوس لقضاء عطلة ثلاثة أيام مع بعض الأصدقاء، وفي الطريق ما بين طرطوس ودمشق رأيت، خمس سيارات مفجرة، وأشلاء الضحايا ما تزال متناثرة، عندها فكرت: كان من الطبيعي جداً أن أكون في أحد هذه السيارات (والآن أفكر: كان من الإمكان أيضاً أن تكون أنت أيها القارئ المحترم أحد الضحايا) فقد كنت أسافر عادة في هذه السيارات، وقبول بعض الأصدقاء دعوتي هو الذي جعلني أسافر في سيارة خاصة مع أحدهم، وبديهي أنني لو كنت في أحد هذه السيارات المتفجرة لما كنت كتبت هذه الرواية، وكذلك ما كنت أنت قرأتها أيها القارئ لو كنت في سيارة عامة في ١٦ نيسان ١٩٨٦ على الطريق من دمشق إلى طرطوس، أو من حلب

إلى اللاذقية، فقد كان هناك مشهد مماثل على هذا الطريق في هذا اليوم، كما عرفت فيما بعد.

من يومها وأنا أردد عبارة عبد أيوب في التوراة:

«ونجوت وحدي لأخبرك».

هذه قصة القصة، ورواية الرواية، أخبركم بها.

وربما هذه قصتي، أو، روايتي، وهذا كتابي، فهل آخذه بيميني أم آخذه بشمالي؟!

محمد كامل الخطيب

هذه الصفحة تركها المؤلف بيضاء ليكتب عليها القارىء مايريد
او مايراه من مشاركة في هذه الرواية

صدر للكاتب

- روايات:

هكذا.. كالنهر - ١٩٨٦
الأشجار الصغيرة - ١٩٩٩
أجمل السنوات - ١٩٩٩

- قصص:

الأزمنة الحديثة - ١٩٧٤
جيران البحر -١٩٧٦
النخلة المضيئة - ١٩٧٨
المدن الساحلية - ١٩٧٩
بلاد كالزيتون - ١٩٨٧
ثلاثة فناجين قهوة ١٩٩٩

- نقد:

المغامرة المعقدة ١٩٧٦
السهم والدائرة ١٩٧٩
الرواية والواقع ١٩٨١
انكسار الأحلام ١٩٨٧
تكوين الرواية العربية ١٩٩٠
الرواية واليوتوبيا ١٩٩٥

- دراسات فكرية:

مسائل راهنة - ١٩٨٦
الثقافة- السياسة- السلطة ١٩٨٩
المجتمع المدني والعلمنة - ١٩٩٤

الأشجار الصغيرة

٢١